



Copyrigh © Ravza Yayınları, 2017

اسم الكتاب
سيرة الزعيم محمد المهدي السنوسي

المؤلف
علي محمد محمد الصلابي

مدير دار النشر
مصطفى قصادار

ISBN
978-

الطبـع والتجليد
دار الروضة للطباعة والنضر والتوزيـع

التصميم
Ahmet Kahramanoğlu

الطبعة الأولى
2017

Sertifika No
31896

Basım Yeri ve Yılı
Ravza Yayıncılık ve Matbaacılık
Kale İş Merkezi No: 51-52
Davutpaşa / İstanbul
Tel: 0212 481 94 11

Kasım 2017

RAVZA YAYINLARI

Büyük Reşitpaşa Cad. No: 22/42
Fatih / İstanbul / Türkiye

Tel: 0090 212 528 46 17
Fax: 0090 212 514 27 31

www.ravzakitap.com
ravzasiparis@hotmail.com

مِنْ أَعْلَامِ التَّصَوُّفِى السُّنِّيِّ: ٦

سيرة الزعيم

محمد المهدي السنوسي

(توسع الحركة السنسية)

تأليف

علي محمد محمد الصلابي



فهرس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

[ال عمران: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝} [آل عِمرَان: ٢٠١]

[النساء: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝} [النِّسَاء: ١]

[الأحزاب: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝} [الأحزَاب: ٠٧-١٧] ١٧].

أما بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

هذا الكتاب يتحدث عن الامم محمد المهدي السنوسي ان غربلة التاريخ، وحفظه من التزوير، وشف الأكاذيب التي دسَّها أصحاب

الأعراض الخبيثة الذين عملوا على تشويهه، وتزويره، وتشكيك الأجيال في سير أبطالهم، وقدوتهم، لعبادة عظيمة يحبها المولى عز وجل؛ الذي من أسمائه الحسنى العدل، والحق أن الأبناء يحفظون لزعماء بلادهم، وصانعي تاريخها، أعمالهم العظيمة، وجهادهم الشاق، ودعوتهم المخلصة مع الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، قال تعالى: [الحشر: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [الحَشر: ١٠]

لقد اطَّلع مجموعة من المفكرين، والمختصين بشؤون الدعوة، والمهتمين بأمر التاريخ على سيرة الإمام محمد بن علي السنوسي، فنالت إعجابهم، وأشادوا بالأسس التي قامت عليها الحركة السنوسية من إيمان عميق، وإخلاص لله، وعلم غزير، وجهاد متواصل، وأشاروا إلى أهمية نشر مثل هذه المعلومات؛ لأنها تساهم في توعية الأجيال بحقائق مهمة في مجال الدعوة إلى الله تعالى.

وفي هذا الجزء من هذه الدراسة نحاول أن نتعرف على سيرة محمد المهدي السنوسي.

فالإمام محمد المهدي يعتبر الزعيم الثاني للحركة السنوسية، وكانت سيرته مليئة بالدروس والعبر والعظات، وتوسَّعت الحركة في زمنه أكثر من أربعة أضعاف ما كانت عليه، وحققت انتصارات عظيمة للإسلام في إفريقية، بسبب إخلاصه لله، وصدقه في الدعوة، وتفانيه في العمل، وشجاعته النادرة، ورجولته الصادقة، وسيره الرشيد المستمد من كتاب الله وسنة رسوله (ص). لقد نمت الحركة السنوسية في عهد المهدي حتى بلغت ذورة نموها وانتشارها، وكانت فترة قيادته أكثر من أربعين عاماً، فكانت هذه المدة الطويلة فترة استقرار وانتشار للدعوة، ويمكن تسميتها بالعصر الذهبي للدعوة السنوسية.

وكان المهدي بعيد النظر، سديد الرأي، شديد العزم على إتمام البناء الذي شيده والده ابن السنوسي، فواصل مسيرة والده في إنشاء الزوايا،

وإرسال الدعاة والعلماء إلى قبائل إفريقية، فدخلوا النيجر والكنغو والكامرون وجهات بحيرة تشاد، وعمل على ذيوع الدعوة عن طريق واداي، وبرنوا، وكاتم، والداهومي وغيرها.

لقد تغلغلت الحركة السنوسية بقيادة المهدي السنوسي في قلب إفريقية من البحر

المتوسط شمالاً، إلى قلب السودان الغربي جنوباً، حيث كانت تنتشر الوثنية، وبتوفيق الله تعالى، ثم هذه الجهود العظيمة؛ دخل عدد كبير من الزنوج في الدين الإسلامي، وخرجت عدة قبائل وثنية من مهاوي الكفر بدرجة لا يتصورها العقل، وفي هذا يقول الشاعر:

كانت طريقته القيام بسنة ... نبوية لألاءة الأوضاح
فله من الخدمات للإسلام ما ... يعلو على متناول الشُّرَّاح
يكفيه نشر الدين في الالاف من ... أقصى حدود «تشاد» حتى «الواح»
نَصْر لدين الله بين مَجَاهِل ... صَعُبَتْ على الرواد والسياح
فازوا من الفتح المبين بعزة ... الإسلامِ بعد عبادة الأشباح

– لقد بسطت الحركة السنوسية في زمن المهدي سلطانها الروحي على أقاليم كثيرة في إفريقية، وحققت نجاحات كبيرة في أوساطها، وفي قلب الصحراء الكبرى، وكانت عقبة كأداء في طريق الرسالات المسيحية التنصيرية، التي وجدت في أتباع السنوسية خصوماً عنيدين، عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة.

لقد كانت سيرة محمد المهدي السنوسي، روحها إيمان عميق بالله، وحب شديد لدعوته الخالدة، ورغبة أكيدة في الشهادة في سبيله، وجهاد مرير لأعداء الإسلام، وصبر لا ينفد في مجال الدعوة، ومجالدة دول الاستعمار بالبناء المتين، والتربية الشاملة، والإعداد المتوازن في كافة المجالات.

لقد اتصف محمد المهدي بصفات القادة الربانيين، من سلامة المعتقد، والعلم الشرعي، والثقة بالله، والقدوة الحسنة، والصدق،

والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية، وحسن اختياره لمعاونيه، والتواضع، وقبول النصح، والحلم، والصبر، وعلو الهمة، والحزم، والإرادة القوية، والعدل، والقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعليم، وإعداد القادة، وإيمان بالله عظيم.

لقد انعكست ثمار الإيمان بالله على جوارحه، وتفجرت صفات التقوى في أعماله، وسكناته وأحواله، واستطاع بتوفيق الله تعالى الانتقال بالحركة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، ورؤية واضحة، ومعرفة حقيقية للظروف المحلية والإقليمية والدولية التي تحيط به.

لقد كانت معالم سيرته، كما قال الشاعر:

كانت معالمها كسيرة جده   إحياء دين وانتشار صلاح
أعمال مجتهد بخالص نية   للخير منتصر بغير سلاح
لو كان عن شيء لغير الله في   أعماله ما كُلِّلَتْ بنجاح
إذ لا يدوم سوى الذي هو نافع   للناس مرتفع عن الأرباح
ومن الكرامة للولي نجاحه   في النصح بالإقناع والإفصاح
والمرء لا يعجبك منه ما سعى   بل ما نوى في السعي من إصلاح
فإذا استوى علم وحسن عقيدة   كان النجاح حليف كل طماح
إن العقيدة لا يصح يقينها   إلا بفعلٍ ظاهرٍ وصراح
فإذا أحب اللهُ باطنَ عبده   ظهرت عليه مواهبُ الفتاحوإذا
صفت لله نية مصلحٍ   مالَ العباد إليه بالأرواحهذي صفات
السيد «المهديِّ» لا   والله ما بالغت في الإيضاح

إن هذا الجهد المتواضع يحاول أن يجيب القارأى الكريم عن كثير من الأسئلة التي تتعلق بسيرة محمد المهدي السنوسي: كيف طلب العلم؟ وكيف تولى زعامة الحركة؟ وهل كان له مجلس شورى؟ وهل تطورت مؤسسات الحركة السنوسية في عهده؟ وما أسباب نمو الحركة؟ وهل كان هناك اهتمام خاص في زمنه بالمنهج التربوي الجهادي؟ ولماذا هذا الاهتمام؟ وما موقف الدول الأوروبية من الحركة السنوسية؟

وما موقف محمد المهدي السنوسي من الثورة العرابية في مصر، وثورة محمد أحمد في السودان؟ وما موقفه من الدولة العثمانية وفكرة الجامعة الإسلامية؟ وما الأهداف من رحلاته وانتقالاته إلى الكفرة ثم قرو؟ وما حقيقة الصراع بين فرنسة والحركة السنوسية؟

هذه الأسئلة وغيرها يحاول الكتاب أن يجد لها إجابات مقنعة من خلال البحث التاريخي.

علي محمد محمد الصلابي

الفصل الأول

محمد المهدي السنوسي

المبحث الأول
اسمه، وولادته، وشيوخه، ومبايعته، ومواقفه

أولاً: اسمه وولادته وشيوخه

هو محمد المهدي بن محمد بن علي السنوسي، ولد في الجبل الأخضر في ليبية في محل يُقال له: (ماسة)، يقع بجانب زاوية البيضاء، في شهر ذي القعدة عام (١٢٦٠ هـ)، الموافق نوفمبر (١٨٤٤ م).[١]

ويذكر أحمد الشريف في تاريخه: «أن ابن السنوسي كان في درنة عند ولادة ابنه المهدي، فكتب له عمران بن بركة يهنئه ويسأله عن الاسم، فلما قدم المبشر عليه حكى لهم حكاية، قال: كان رجل يخرز طبلاً، فمر به جماعة وهو يخرز، قالوا له: ماذا تفعل؟ قال: إذا يبس تسمعون صوته. ثم قال لحميه أحمد بن فرج الله: هذا المولود الذي ازداد على ابنتك يقف موقفاً يجري فيه الدم مجرى الماء في الوادي. وكتب لعمران بتسميته محمد المهدي، وقال: أسميناه المهدي ليحوز إن شاء الله أنواع الهداية، ونرجو الله أن يجعله مهديّاً»[٢].

لقد كان مجيء الولد لابن السنوسي بعدما تقدمت به السن، وكان الإخوان

---

[١] الحركة السنوسية، ص (١٦٩).

[٢] السنوسي الكبير، ص (٣٤).

السنوسيون يتمنون من الله أن يرزق شيخهم مولوداً مباركاً، ولذلك كانت فرحة الإخوان وابن السنوسي بهذا المولود عظيمة، وسارع عمران بن بركة لزفِّ البشرى لوالده، لإدخال السرور على قلبه، وبعد مدة أرسل ابن السنوسي إلى زوجته بالقدوم إلى درنة، وسلم ابنه للمرضعة، وكان سرور ابن السنوسي عظيماً، وكان يرى أن ابنه المهدي سيخلفه بالدعوة، ويكمل ما بدأه هو من أعمال، ومكث ابن السنوسي في درنة بجانب أهله إلى أن ولد ابنه الثاني سنة (١٢٦٢ هـ/١٨٤٦ م)، وعندما كتب له عمران بن بركة يهنئه ويسأله عن اسم الوليد الثاني، ردَّ له الجواب بتسميته الشريف، قائلاً له: «إننا لا نحيد بأسماء أبنائنا عن أسماء النبي (ص)، وإنما يختلفون في الألقاب والكنى، فكما سمَّيْتَ الأول محمد المهدي ليحوز أنواع الهداية؛ فسمِّ هذا محمداً الشريف ليحوز أنواع الشرف، ثم شرّق للحجاز»[٣].

وأسند أمر تربية أولاده للإخوان، وكان المسؤول الأول الشيخ العلامة عمران بن بركة، وكان يتابع أخبار ولديه في برقة، وعندما أتم المهدي الخامسة من عمره أرسل ابن السنوسي للإخوان الكافلين له قائلاً: أدخلوه الكتّاب، وعلموه الوضوء والصلاة. ففعلوا كما أمر[٤].

وبعد أن أتم السنة السادسة من عمره أدخله المدرسة القرانية تحت إشراف العلامة عمران بن بركة الفيتوري، وفي منتصف السنة السابعة من عمره، حفظ جميع القران الكريم.

وكان علماء الحركة السنوسية يعلمون أولادهم كتاب الله، ويشجعونهم على حفظه مقتدين في فعلهم بفعل الصحابة مع أولادهم، وبأقوال العلماء في هذا الباب.

قال السيوطي: «تعليم الصبيان القران أصل من أصول الإسلام،

---

[٣] أحمد الشريف، المخطوط، ص (٣٤).

[٤] الحركة السنوسية، ص (١٧٠).

فينشؤون على الفطرة، ويسبق إلى قلوبهم أنوار الحكمة قبل تمكن الأهواء منها وسوادها بأكدار المعصية والضلال»[٥].

وأكَّد ابن خلدون هذا المفهوم بقوله: «تعليم الولدان للقران شعار من شعائر

الدين، أخذ به أهالي الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده بسبب ايات القران ومتون الأحاديث، وصار القران أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات»[٦].

وبعد أن سمع والده بحفظ ابنه للقران الكريم طلبه والده للمجيء للحجاز، وصحبه العلامة محمد بن إبراهيم الغماري، وهناك عهد به والده إلى نخبة من العلماء لتربيته وتلقينه العلوم تحت إشرافه المباشر، وفي سنة (١٢٧٤ هـ) رجع محمد المهدي إلى الجغبوب بصحبة العلامة عبد الرحيم المحبوب، وواصل محمد المهدي تعليمه العالي في معهد الجغبوب، وأشرف على تعليمه والده ابن السنوسي وكبار الإخوان.

وكان ابن السنوسي يتابع بعناية فائقة أقوال وأفعال ابنه، ويوجهه للصفات الرفيعة، والأخلاق الحميدة، وكان محمد المهدي منذ طفولته يتميز بالذكاء، وحسن الخلق، والتربية الرفيعة، ومن القصص التي تدل على صفاته الحميدة: جيء للسيد المهدي في إحدى المناسبات بجواد مسروج ليركبه، وكان محمد المهدي لا يزال صغيراً؛ بحيث إنه لا يستطيع وضع رجله دون وساطة في ركاب السرج، وتقدم أحد الإخوان مطأطئاً ليصعد المهدي على كتفه حتى تصل رجله إلى الركاب، وكان ابن السنوسي يلاحظ هذه الحركات وينظر إليها باهتمام من طرف خفي، ورفض المهدي أن تطأ رجله كتفي الشخص الذي تقدم لمعاونته رفضاً باتاً، وأخذ يقود جواده إلى أن اقترب من حجر عال مثبت بالأرض

[٥] انظر: منهج التربية النبوية للطفل، محمد نور، ص (١٠٤).

[٦] انظر: منهج التربية النبوية للطفل، ص (١٠٥).

فعلاه، وبذلك تمكن من أن تصل رجله إلى ركاب السرج، فنال هذا إعجاب واستحسان والده والإخوان الحاضرين[٧].

«وكان والده يكثر من سؤال الإخوان الذين يشرفون على تربيته وتعليمه عما وصل إليه، فكانوا يبدون إعجابهم»[٨].

وفي السنتين الأخيرتين من حياة ابن السنوسي اهتم بتوطيد مركز ابنه المهدي بين

الإخوان، وألقى الأضواء عليه، وعمل على رفع شأنه.

نقل عن الشيخ عمر الفضيل رحمه الله قوله: جاء السيد المهدي بـ (لوحه) إلى والده ابن السنوسي يريد أن يبدأ له فيه (بالافتتاح)، فلما فرغ من كتابته قال له: «اشهد لنا بأننا خدمناك»[٩].

وكان ابن السنوسي يقف احتراماً للمهدي عندما يستأذنه للخروج، وأنه أصلح له حذاءه مرة، وقال للإخوان: اشهدوا أنني خدمت المهدي، فخجل ابنه وتبللت ملابسه بالعرق واحمر وجهه حياء، حتى قيل: إنه أصيب بنوع من الحمى[١٠].

وقال في إحدى المناسبات: «المهدي له السيف، والشريف له الكتاب، وثم ألبسه السيف، وقال له: تقدم لتصلي بنا»[١١].

وحرص ابن السنوسي أن يزوج ابنه المهدي في حياته، فزوجه وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره بفاطمة بنة عمران بن بركة، وذلك عام (١٢٧٥ هـ/ ١٨٥٨ م)، وقد أنجبت للمهدي عدة أولاد، وتوفيت في حياته سنة (١٨٩١ م)[١٢].

---

[٧] انظر: السنوسي الكبير، ص (١٣٥).

[٨] الحركة السنوسية، ص (١٧٢).

[٩] انظر: السنوسي الكبير، ص (١٣٦).

[١٠] المصدر السابق نفسه.

[١١] الحركة السنوسية، ص (١٧١).

[١٢] المصدر السابق نفسه، ص (١٧٣).

ثانياً: مبايعته

عندما توفي ابن السنوسي في صفر عام (١٢٧٦ هـ) كانت سن محمد المهدي حوالي ست عشرة سنة، ومع هذا فقد خف كبار العلماء والشيوخ في الحركة السنوسية إلى مبايعته، وكان على رأسهم عمران بن بركة، وأحمد الريفي، وعلي بن عبد المولى، ومحمد المدني التلمساني، ومحمد بن حسن البسكري، وعبد المتعال الإدريسي، وأحمد أبو القاسم التواتي، وأبو القاسم العيساوي، وعمر الأشهب، ومحمد بن الشفيع، ومصطفى المحجوب، وعبد الرحيم المحبوب، وعمر الفضيل، ومحمد السكوري، وأحمد أبو سيف، ومحمد بن الصادق الطائفي، وأبو سيف مقرب، ومحمد بن إبراهيم الغماري، وعبد الله السني، والمرتضى فركاش، وحسين الغرياني، وفالح الظاهري، فقدموا لمحمد المهدي وشقيقه محمد الشريف

واجب التعزية، وبايعوا الإمام المهدي قاطعين على أنفسهم عهد الله وميثاقه أن لا يتهاونوا بواجب الأمانة التي تركها شيخهم الجليل لهم، وأنهم مستعدون لتقديم الأنفس والأرواح، في سبيل دعوتهم ودينهم، وكانت تلك البيعة قبل دفن ابن السنوسي[١٣] رحمه الله تعالى ـ وقد بين عمران بن بركة في خطبة تأبين ابن السنوسي هذه البيعة في قوله: «... وأن تجعل تأييد الدين وتمامه على لسان ويد نجله الطاهر، وفرعه الزاهر، ووارثه الماهر، سيدي ومولاي السيد محمد المهدي...»[١٤].

ثالثاً: المجلس الأعلى للحركة وسير الحركة

كَوَّنَ الإمام المهدي السنوسي مجلساً أعلى من كبار الإخوان، يتكون من: العلامة عمران بن بركة، وأحمد الريفي، وعلي عبد المولى، وفالح الظاهري، وعبد الرحيم المحبوب، ومحمد المدني التلمساني، ومحمد بن

---

[١٣] انظر: المهدي السنوسي، ص (٣٠).

[١٤] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٧٣).

الحسن البسكري، وسيف مقرب[١٥]، وكان هذا المجلس يمثل قمة الهرم الذي قاعدته الزوايا، وكان يضم كبار رؤساء الزوايا في برقة وطرابلس ومصر والحجاز والسودان وشمال إفريقية، وكان يجتمع سنويّاً في الجغبوب للنظر في أهم أمور الحركة، وكان يرأسه محمد الشريف السنوسي، ثم تعرض قراراته على الإمام المهدي، للموافقة عليها، أو تعديلها بما يبدو له، أو رفضها، أما المجلس الخاص، فيتكون من كبار الإخوان المقيمين في الجغبوب، فيعقد جلساته يومياً بالجغبوب، وللكثير من أعضائه أعمال أخرى مضافة إلى عضوية المجلس، وهو يشكل قيادة للحركة.

وقد وصف الطيب الأشهب هذا المجلس، بمثابة مجلس الوزراء، فالسيد أحمد الريفي بمثابة رئيس للوزراء، وهو المستشار الخاص للإمام محمد المهدي، وعمران بن بركة رئيس مجلس الشيوخ، وعلي بن عبد المولى حاكم الجغبوب، بمثابة وزير داخلية ومالية في وقت واحد، إلى جانب نظارة الخاصة الإمامية، ومحمد المدني بمثابة وزير الشؤون الاجتماعية، ومحمد الشريف بمثابة وزير

المعارف، إلى جانب نيابته عن الإمام المهدي ورؤساء الزوايا، كحكام للمناطق، وبمثابة نواب الأمة عندما يجمعهم المجلس الأعلى، وهناك مسؤوليات أخرى وزعت على من ذكرنا وغيرهم، كالإشراف على طلبة القران، وطلبة العلم، ومراقبة المعلمين في المدرستين القرانية والعلمية، والإشراف على العمال، وعلى دار الضيافة، ولاستقبال الزوار، ومراقبة المكتبة الجغبوبية، ونظام توزيع الأرزاق (التموين)، واستلام الوارد وحفظه، إلى جانب هذا النظام المحكم، هناك مجالس فرعية في كل إقليم من الأقاليم تضم رؤساء المراكز الإصلاحية في ذلك الإقليم، للنظر فيما يتعلق باختصاصاتهم، والشؤون المرتبطة بهم، فعلى هذا التخطيط كانت تُدار شؤون الحركة[١٦].

---

[١٥] انظر: المهدي السنوسي، ص (٣٥).

[١٦] انظر: المهدي السنوسي، ص (٣٥).

ومن الملاحظ أن مبدأ التفرغ كان موجوداً في الحركة لقناعة الحركة السنوسية أن الأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة، وجهود ضخمة، وهمم عالية، ولذلك سلكت الحركة السنوسية مسلك تفريغ بعض القيادات، ووفرت المال اللازم لهذا الهدف، ووفرت كل ما يحتاجه الأفراد المتفرغين حتى يستطيع المتفرغون أن يبذلوا ما في وسعهم من أجل الدعوة ونشرها بين الناس.

واهتم الإمام المهدي بتطوير العاصمة السنوسية، فحفلت الجغبوب بالنشاط العلمي والزراعي، وانتظم سير العمل في معهد الجغبوب، ووزع تلاميذ المدارس القرانية على أقسام، ورتبت بدقة أمور الدراسة، وكل ما يتعلق بالطلاب، كذلك سارت حركة الصناعة البسيطة التي يحتاجها الأهالي كالحدادة والنجارة... إلخ.

واستصلحت مساحات من الأراضي وصارت تنتج الخضار والتمور، وارتبطت الجغبوب بالزوايا المتناثرة في الصحراء، فكانت القوافل تمر منها في رحلاتها بين الساحل الإفريقي والصحراء، وبين مصر والمغرب، كما كانت قِبْلة وفود القبائل التي تدين بالولاء للسنوسية، وانتظم سير العمل في الزوايا بسبب التنظيم الدقيق الذي سادها، وكان الاتصال بين المركز والزوايا يتم بانتظام ودقة بالغين، فالرسائل مستمرة بين المهدي وبين رؤساء الزوايا، تنقلها القوافل في طريقها، أو ينقلها في بعض الأحيان مبعوثون إذا استوجب الأمر الاستعجال، وتضمنت الرسائل تعاليم

الحركة للزوايا، وتقارير رؤساء الزوايا للمركز، بالإضافة إلى أخبار الحركةوالإخوان[١٧]. وكانت الزوايا تقوم بدورها في جمع المعلومات وما يتعلق بالقضايا الأمنية وترسلها إلى الجغبوب.

وكان نظام البريد في الحركة السنوسية في عهد الإمام المهدي ينقسم إلى أربعة أقسام نقطة ارتكازها الجغبوب، وكان ترتيبه على الوجه الاتي:

---

[١٧] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٨٠).

- بريد خاص بزوايا طرابلس.
- بريد خاص بزوايا برقة.
- بريد خاص بزوايا مصر.
- بريد خاص بزوايا السودان.

وكثيراً ما يصل البريد بوساطة قوافل الزوار والتجار، وهذا عدا البريد المنظم والرسل الخاصين متى دعت الحالة. يصل البريد ببرقة إلى زاوية مسوس، وهذه تقوم بتوزيعه إلى زوايا برقة، ويصل إلى زاوية جنزور أو العزيات، وهذه تقوم بتوزيعه على زوايا الجبل، ويصل البريد الخاص بطرابلس إلى إحدى زواياها والمفهوم أنها سِرْت في المدة الأخيرة، وهذه تقوم بتوزيعه، كما أن البريد الخاص بزوايا واحات فزان يصل إلى زاوية «واو» وهي تقوم بتوزيعه، وتقوم إحدى هذه الزوايا بمهمة إرسال البريد العادي إلى زوايا الجزائر، إن لم يكن البريد مستعجلاً، وإلا يرسل بصفة خاصة إلى زوايا السيد ابن تكوك رأساً من الجغبوب والكَفْرة، ويصل البريد الخاص بزوايا مصر إلى سيوة وهناك من يتولى مسؤوليته ممثل السنوسيين بما في ذلك بريد الحجاز، وإذا كان هذا مستعجلاً فتتخذ له طريقة خاصة، أما إذا كان البريد خاصاً بزوايا خاصة في أي جهة من الجهات فيقوم به الساعي من الجغبوب رأساً، وكل زاوية من الزوايا يحدث لها أمر من الأمور يدعو لمواصلة المركز العام، فيقوم منها ساعٍ مخصوص، ولا يكاد البريد يتأخر أكثر من شهر لأي جهة من الجهات لكثرة القوافل، وتعاقب الزوار، أما البريد الخاص بالسودان، فعادة ما يكون مع سيل القوافل المنهمر ذهاباً وإياباً، وهكذا كانت

الأخبار تصل إلى عاصمة الحركة، وتصدر منها التوجيهات والأوامر إلى جميع الزوايا، وفي كل البلدان، وممن أشرف على سير بريد الحركة السنوسية من الإخوان: محمد السمالسوسي، عبد السلام الشرداخ، عبد الرسول الرتيوي، السنوسي التيتلي، عيسى التارقي، إبراهيم الشهيبي،

علي السعيطي، حسين الهبري، عبد الرحيم الفضيل، محمد البوعيثي[١٨].

وكان من يريد زيارة الإمام المهدي يذهب إلى الجغبوب، وهناك يخضع لنظام خاص متبع ترتبط إجراءاته بالسيد محمد البسكري الذي يعد بمثابة رئيس الديوان والتشريفات، فهو الذي يقوم بتحديد مواعيد الزيارة التي لا تكون إلا عن طريقه، ويصحب كبار الزائرين ويقف خلف زعيم الحركة السنوسية أثناء الزيارة؛ سواء كانت الزيارة للعوام أو الخواص، أما إذا كان الزائر أو الزوار تابعين لأحد الزوايا، فعلى رئيس الزاوية إن كان حاضراً ترتيب هذه الزيارة مع محمد البسكري، وقد جرت العادة بأن تكون زيارة الضيوف بعد تمام مدة الضيافة؛ وهي ثلاثة أيام إلا في حالات استثنائية[١٩].

رابعاً: نمو الحركة السنوسية وأسبابه:

نمت الحركة السنوسية في عهد محمد المهدي نمواً كبيراً، وتضاعف عدد الزوايا أكثر من أربعة أضعاف، وانتشرت هذه الزوايا في الصحراء الكبرى، وعلى طريق مصر، وتونس، وفي واداي... وغيرها.

وكان من أسباب هذا النمو السريع: طبيعة الحركة، ونظمها المتطورة بالنسبة لعصرها، وفهمها لطبيعة المجتمعات القبلية، وطول المدة التي قضاها الزعيم الثاني في قيادة الحركة؛ إذ تجاوزت أربعين سنة، فتمكن أثناءها من تركيز العمل الذي بدأه والده، وكان يقول: «إن والدي بدأ عملاً من المنتظر أن يأتي بنتائج عظيمة، وقد أخذت على عاتقي إتمامه، وليس عليَّ غرض اخر»[٢٠]، وكانت سياسته الحكيمة تمنعه من الاحتكاك بالدولة العثمانية، أو الدول الأوروبية، وحصر جل

---

[١٨] انظر: برقة العربية الأمس واليوم، ص (٢١٢، ٢١٣).

[١٩] انظر: الحركة السنوسية، ص (٤٥).

[٢٠] انظر: المهدي السنوسي، ص (١٣٤).

اهتمامه بنشر الدعوة بين القبائل، وساعدته أخلاق رفيعة وصفات حميدة تحلى بها في إقبال الناس على الحركة السنوسية، واحتلَّ بها مكانة رفيعة في قلوب الإخوان والأتباع ومؤيدي الدعوة، فكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويبث العلوم في أوساط القبائل متبعاً في ذلك كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ص).

قال أحمد رفيق المهدوي:

كانت طريقته القيام بسنة ... نبوية لألاءة الأوضاح

فله من الخدمات للإسلام ما ... يعلو على متناول الشُّراح

يكفيه نشر الدين في الالاف من ... أقسى حدود «الشاد» حتى «الواح»

نصر لدين الله بين مجاهل ... صعبت على الرواد والسياح

فازوا من الفتح المبين بعزة ا ... لإسلام بعد عبادة الأشباح[٢١]

– لقد تحلى الإمام محمد المهدي بعلم وورع وتقوى، وشخصية جذابة، وبُعْد نظر، وثاقب فكر، ورأي صحيح، وعزم شديد، وحرص أكيد على إتمام البناء الذي شيده والده، والعمل بكل جهد وقوة من أجل نشر الدعوة بين أهل البلاد القريبة والبعيدة في إفريقية الوسطى خصوصاً، حتى ذاع صيته، وتمكن السنوسيون بفضل الله تعالى ثم جهودهم المتواصلة من أن يصلوا بدعوتهم إلى قلب الصحراء الكبرى، وأطرافها، حتى جهات بحيرة تشاد وما يجاورها من إمارات إسلامية قديمة، أو قبائل زنجية وثنية، أو قبائل أخرى لم يكن قد صلح حال إسلامها بعد[٢٢].

لقد دخلت عدة قبائل إفريقية في الدعوة الإسلامية بفضل الله تعالى ثم جهود الحركة السنوسية، ومن أشهر القبائل التي استجابت لدعاة الحركة السنوسية، قبيلة بلي التي كانت على الوثنية، ووصلت الدعوة الإسلامية

---

[٢١] انظر: المهدي السنوسي، ص (٣٨).

[٢٢] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٥٨).

إلى شعب التيدا في بلاد تيبستس بالصحراء الكبرى جنوب واحة فزان، فقد كانوا لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، وكان دعاة الحركة السنوسية قد توغلوا في إفريقية ووصلوا إلى بلاد الجلا في الحبشة، فيرسلون إليها في كل عام من هَرَر، حيث تتمتع السنوسية بنفوذ كبير ،

وتكاد تجد كل الرؤساء منهم في بلاط الأمير بلا استثناء، وكانت الحركة السنوسية تفتح المدارس وتبني المساجد، والمراكز الإصلاحية، وتشتري العبيد ثم يعلمونهم مبادأى الإسلام، ثم يعتقونهم ويرسلونهم إلى أوطانهم وقبائلهم ليدعو أقوامهم إلى الإسلام[٢٣].

واستفادت الحركة السنوسية من هجرة القبائل العربية القديمة في إفريقية، وجددت الصلة معها، ونسقت معها في الدعوة وفي الجهاد ضد فرنسة، ومن أشهر هذه القبائل: أولاد سليمان، أولاد يعقوب، أولاد غنَّام، المحافيظ... وغيرها كثير، وكان قد استقر بعضها في مالي، وتشاد، والنيجر، ونيجيرية، والكاميرون[٢٤].

وتمكن الإمام المهدي من أن يبني علاقات قوية مع الإمارات الإسلامية في واداي، وبرقو، وكانم وغيرها، واختط خطة حكيمة كانت مبنية على الحيطة والحذر من النفوذ الصليبي الأوروبي في إفريقية، ثم عدم التردد في مكافحة هذه الدول إذا جد الجد، كما فعل مع فرنسة[٢٥].

وواصل المهدي السنوسي سيره في فتح المراكز الإصلاحية، والمدارس القرانية، وبناء المساجد التي اهتمت بنشر الإسلام، وقام بإرسال دعاة ومبشرين بالإسلام، ودين الله، اشتهر منهم العلامة محمد عبد الله السني، والشيخ حمودة المقعاوي، وطاهر الدغماري، وغيرهم كثير.

وقام المهدي بتقوية الصِّلات التجارية بين الزوايا وبين مراكز التجارة والأسواق المختلفة، ونتج عن ذلك استتباب الأمن في هذه الربوع

---

[٢٣] انظر: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، د. حسن إبراهيم، ص (٤٩).

[٢٤] انظر: جهاد الليبيين ضد فرنسة في الصحراء الكبرى، محمد القشاط.

[٢٥] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٥٨).

وانتشار الطمأنينة، فقد زاد نشاط القوافل وأقدم المسافرون والتجار على قطع الفيافي والصحارى من غير تردد، فظهرت بوادر العمران في الطرق الصحراوية، وأصبح من الميسور على دعاة الحركة أن يصحبوا هذه القوافل وهؤلاء المسافرين والتجار في رحلاتهم وأسفارهم، ويدعوا

إلى الإسلام، ويقضوا على الوثنية، ويعطلوا بذلك أعمال التنصير الذي تدعمه الدول الأوروبية في إفريقية.

وبالفعل حققت الحركة انتشاراً عظيماً في أوساط إفريقية؛ مثل: بلاد النيجر، والكنغو، والكامرون، وجهات بحيرة تشاد، وذاع خبر الحركة السنوسية في إفريقية من خلال طريق واداي وبرقو وكانم وأداموا والداهومي[٢٦] وغيرها، وبدأت الدول الأوروبية تشعر بخطر الحركة السنوسية، وشرعت في حبك دسائسها ومؤامراتها وتأليب الدولة العثمانية عليها، لقد صدمت الدول الأوروبية بالنتائج التي حققتها الحركة السنوسية، واشتاطت غضباً وحقداً على الإسلام، وهي ترى قبائل وثنية مثل التبو، والبرقو، والندى تدخل طائعة مختارة في الإسلام[٢٧].

كان الدعاة السنوسيون يعملون بالليل والنهار، والسر والإعلان، ويقطعون المسافات الشاسعة من أجل دعوة الله تعالى، وكان بعضهم يترك أهله وأطفاله في الجغبوب، ذات مرة دخلت السيدة صالحة البسكرية زوجة ابن السنوسي على محمد المهدي، وكان يجلها ويحترمها، وقالت له: إن نساء الإخوان قد سئمن كثرة أسفار أزواجهن، وطول تغيبهم، وعدم استقرارهم، فابتسم وقال: إن الجهاد طويل وشاق، وإن العمل يتطلب الجد، والشيء الذي ينتظرنا وينتظر إخواننا في المستقبل أشق مما هم عليه الان[٢٨].

---

[٢٦] المصدر السابق نفسه، ص (٦٠).

[٢٧] انظر: المهدي السنوسي، ص (٥١).

[٢٨] المصدر السابق نفسه، ص (٦٠).

وكان الإمام المهدي مهتماً بالبناء الداخلي للحركة، ولذلك أشرف بنفسه على إصلاح ذات البين بين القبائل، وكان يرى وحدة الصف والتربية الجهادية مهمة في مواجهة المعارك القادمة ضد الإسلام.

وعندما اشتد النزاع بين قبائل الجبارنة وأولاد علي، ووصل إلى مرحلة أوشك القتال أن يندلع بينهم بسبب حادثة قتل جربوع بن الشيخ أبو سيف الكزة بمصر، وكان الشيخ أبو سيف بن أبي شنيف الكزة من الشخصيات الظاهرة بين شيوخ الجبارنة ومسموع الكلمة، وهو والد المقتول، فأصبح داعية كبيراً لغزو أولاد

علي، وأنشد قصيدة باللغة الشعبية مثيرة لما كمن من الأحقاد والضغائن، مسعرة لشرار الغضب، ومذكية لنار الانتقام يستنجد بها جميع القبائل الموالية له أو التابعة والمرتبطة به، كما جرت العادات، ويحثُّهم في قصيدته بالاستعداد لغزو أولاد علي، وقتل رجالهم، وأخذ أموالهم وسبي نسائهم، وكان مطلع قصيدته يقول:

يا عون من قابلا عون	وأشرف على رأس عال
أو جنة فراجين وحسون	أو عينت طامية في المشالي[٢٩]

- وكاد الشيخ أبو سيف أن ينجح فيما أراده للغزو؛ حيث لبَّى طلبه، وأخذت قبائل أولاد علي تستعد للمعركة، وأرسلت إلى الشيخ أبي سيف تدعوه للإسراع للقتال، وفي هذه الأثناء وصل كتاب من شيخ زاوية مسوس السنوسي الأشهب إلى الزعيم محمد المهدي يخبره بالأمر، فأرسل المهدي في طلب الشيخ أبي سيف بسرعة، فامتثل الأخير أمر السيد المهدي في الوقت الذي تقرر فيه الغزو، وأرجأه إلى أن يعود من الجغبوب، ولما وصل الشيخ أبو سيف ومَثُل أمام يدي إمام الحركة السنوسية الذي أخذ ينصحه للإقلاع عما عزم عليه، ويبين له حرمة هذا الفعل الجاهلي، فامتثل الشيخ أبو سيف أمر

---

[٢٩] انظر: برقة العربية الأمس واليوم، ص (٢٠٤).

المهدي، وأقلع عن فكرته، وعاهد إمام الحركة بالعدول عنها وأن لا يعود لمثلها، بالرغم عمّا في ذلك من المساس بكرامته وكرامة بني قومه وسمعتهم التي يرون حفظها في الأخذ بالثأر، ورجع الشيخ أبو سيف وبر بوعده وأمر قومه والنجدات التي استعدت لمساعدته بالرجوع إلى مواطنهم، وكتب إلى زعيم قبائل أولاد علي وبقية شيوخهم يخبرهم بالعدول عن رأيه، وأن يكونوا في مأمن من جهته لا خوفاً منهم ولا خشية من العاقبة، ولكن امتثالاً لأمر الشرع وطاعة لزعيم الحركة السنوسية[٣٠].

وكان المهدي يحرص دائماً على إزالة البغضاء والشحناء من نفوس القبائل المتعادية ويدعوها إلى أخوة الإسلام، وشغلها بالطاعة، ودفعها نحو المعالي، والأخلاق الرفيعة، واستطاع أن ينظم من القبائل كتائب للجهاد ساهمت في قتال فرنسة، وبعد وفاته قاتلت إيطالية.

لقد كرس المهدي جهوده للبناء الداخلي في الحركة، واختط طريقاً سلميّاً تجنب الاحتكاك فيه جهد المستطاع بالقوى المحيطة به، واستطاع أن يتخذ مواقف تدل على بعد نظره وثاقب فكره من الثورات التي حدثت في السودان وفي مصر، وكذلك الدول الأوربية.

خامساً: المنهج التربوي الجهادي

حرص الإمام المهدي على تعميق المنهج التربوي في أتباع الحركة، وكان رحمه الله يدرك تماماً أن العمل بأحكام القران الكريم، والسنة النبوية الشريفة يقتضي وجود القوة والسلطان، ولذلك جعل من الزوايا مركزاً لتعليم الرماية أيضاً، فكان يحث الإخوان والأتباع على إتقانها ويبث فيهم روح الأنفة والنشاط، ويحملهم على الطراد والجلاد، ويعظم في أعينهم فضيلة الجهاد، وكان المهدي يمتلك خمسين بندقية خاصة يعتني بتنظيفها وإعدادها دائماً بيده، ولا يرضى بأن يؤدي هذا غيره

---

[٣٠] المصدر السابق نفسه، ص (٢٠٥).

من أتباعه الكثيرين قصداً، وعمداً، حتى يقتدي به الناس ويهتموا بأمر الجهاد، ويحفلوا به[٣١].

ونشطت الحركة السنوسية في تعبئة أتباعها على الاستعداد للجهاد، ونظمت صفوفها، ورأى السلطان عبد الحميد الثاني في الحركة السنوسية قوة منظمة ومعدة إعداداً ماديّاً ومعنويّاً جيداً يمكن استغلالها في المواجهة العسكرية المتوقعة مع أعداء الدولة العثمانية في شمال إفريقية، وقد أعرب السلطان عبد الحميد عن ثقته بقوة الحركة السنوسية قائلاً: «وإذا كان هناك أحد عليه الدفاع عن حقوقنا، فهو الشيخ السنوسي؛ لأنه قادر على أن يجمع حوله ثلاثين ألفاً من الرجال، ولن يتخلى عن بنغازي إلا بعد قتال، ثم إن صلته بمئات الألوف من أتباع الطرق والمريدين قوية، فإذا قام السنوسيون قومتهم، فلا بد أن يجروا الإيطاليين إلى صراع دموي أشد مما شهدته السودان في ثورة المهدي، لقد جهزنا السنوسي بمقدار كافٍ من الأسلحة والذخائر، فهم قوة لا يُستهان بهم أبداً»[٣٢].

كان هذا التصريح بعدما وصلت للسلطان عبد الحميد المخططات الإيطالية التي

كانت تستهدف ليبية، لأن إيطالية كانت تحلم بضم شمال إفريقية؛ لأنها تراه ميراثاً إيطالياً، هكذا صرح رئيس وزرائها (مارتريني)، لكن فرنسة احتلت تونس، وإنكلترة احتلت مصر، ولم يبق أمام إيطالية إلا ليبية.

واستطاعت مخابرات السلطان عبد الحميد الثاني أن تكشف سياسة إيطالية في ليبية التي كانت على ثلاث مراحل:

١- الحلول السلمية، بإنشاء المدارس والبنوك وغيرها من (مؤسسات خدمية).

---

[٣١] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٦٠).

[٣٢] انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية، ص (١٤٧).

٢- العمل على أن تعترف الدول بامال إيطالية في احتلال ليبية، بالطرق الدبلوماسية.

٣- إعلان الحرب على الدولة العثمانية والاحتلال الفعلي.

وكانت السياسة الإيطالية لا تلفت النظر إلى تحركاتها، بعكس السياسة البريطانية أو الفرنسية في ذلك الوقت، وكان الإيطاليون يتحركون بحكمة وهدوء شديدين دون إثارة حساسية العثمانيين.

وكان السلطان عبد الحميد متيقظاً لتلك الأطماع الإيطالية، وطلب معلومات من مصادر مختلفة عن نشاط إيطالية في ليبية وأهدافهم، فجاءته المعلومات تقول: «إن للإيطاليين بمدارسهم وبنوكهم ومؤسساتهم الخيرية التي يقيمونها في الولايات العثمانية، سواء في ليبية أو في ألبانية، هدفاً أخيراً هو تحقيق أطماع إيطالية في الاستيلاء على كل من:

١- طرابلس الغرب.

٢- ألبانية.

٣- مناطق الأناضول الواقعة على البحر الأبيض المتوسط: أزمير، الإسكندرون، أنطاكية.

وقام السلطان عبد الحميد الثاني باتخاذ التدابير اللازمة أمام أطماع إيطالية، ولما شعر أنه سيواجه اعتداءً إيطاليّاً مسلحاً على ليبية، قام بإمداد القوات العثمانية في ليبية بـ (١٥٠٠٠) جندي لتقويتها، وظل يقظاً حساساً تجاه التحركات الإيطالية، ويتابعها شخصياً وبدقة، ويطالع كل ما يتعلق بالشؤون الليبية بنفسه بواسطة سفير

الدولة العثمانية في روما، ووالي طرابلس؛ مما جعل الإيطاليين يضطرون إلى تأجيل احتلال ليبية، وتم لهم ذلك في عهد جمعية الاتحاد والترقي، ولذلك حرص السلطان عبد الحميد على تقوية الحركة السنوسية ودعمها ماديّاً ومعنويّاً[٣٣].

[٣٣] انظر: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، علي الصلابي، ص

لقد اهتمت الحركة السنوسية بإعداد أفرادها للجهاد في سبيل الله ضد أوروبة الصليبية التي تهاجم ديار المسلمين في كل مكان، وكانت وسائل التربية عند الحركة السنوسية: روحية، وفكرية، ونفسية، وجسدية، واجتماعية، ومالية، فكان اهتمام الحركة بالتربية الروحية عظيماً، ولذلك تعلَّق أفراد الحركة السنوسية بالجنة، وحرصوا على رضا الله تعالى، وتعمَّقت مفاهيم القضاء والقدر في نفوسهم، فأصبحوا لا يخافون إلا الله، فكانوا يتربَّون على قول رسول الله (ص): «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد...» [٣٤].

فأجَلُ المرء يكتب وهو في بطن أمه، قال تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً} [الزُّمَر: ٢٤]

كانت عقيدة القضاء والقدر واضحة المعالم في فكر الحركة السنوسية، فأصبح أتباعها يؤدون واجبهم بكل شجاعة، وهم على يقين راسخ بقوله تعالى: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۞} [التّوبَة: ١٥].

ولقد التقيت بالشيخ الفاضل رئيس المحاكم الشرعية في ليبية سابقاً في زمن المملكة الليبية، الشيخ منصور المحجوب بمكة المكرمة، وحدثْتُه عن حرصي على كتابة تاريخ الحركة السنوسية، فانساب في الحديث عن رجالات الحركة وحبهم للإسلام، وتعلقهم بالاخرة وجهادهم ضد فرنسة، وذكر أن بعض المجاهدين عندما استعصى عليهم فتح حصن من الحصون التي احتلتها فرنسة بتشاد قاموا بحصاره

.(٦٨٦)

[٣٤] انظر: صحيح مسلم، رقم (٢٦٤٣).

وتأخَّر الفتح، أقسم أحد الإخوان السنوسيين إما الشهادة أو الفتح، وانقضَّ كالأسد بجواده على الحصن، وكان ذلك الهجوم سبباً في الفتح، وفاضت عينا الشيخ منصور بالدموع، وشرع في البكاء، ثم قال: أولئك قوم عرفوا الله وعملوا بهذه المعرفة، ثم وجه الخطاب إليّ، وقال لي: يا صلابي اتقِ الله في كتابتك، واعلم بأن الله سيحاسبك عليها يوم القيامة، وانتفضت من مكاني من شدة تأثير كلامه عليّ، وحثني على الإخلاص والرغبة فيما عند الله، وقال لي: أنا الان قد جاوزت السبعين من عمري، وقد رأيت الكثير في الدنيا، ورفع يده إلى فمه ثم نفخ في كفه، وقال: إن حقيقة هذه الدنيا مثل هذه النفخة.

إن الشيخ منصور المحجوب يعتبر من أتباع الحركة السنوسية، وقد تولى مناصب كبيرة من رئاسة الجامعة الإسلامية بالبيضاء، وتولى رئاسة القضاء، وهو من مؤسسي رابطة العالم الإسلامي، وأخبرني بأنه ماكث في مكة ينتظر الوفاة حتى يدفن في الأراضي المقدسة.

إن الحركة السنوسية اهتمت بتربية أتباعها على الصلاة والقيام، والصوم، والزكاة، والحج، وتلاوة القران الكريم الذي هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم.

إن من أعظم العبادات ومن أحسن الوسائل في التربية الروحية التي سلكها السنوسيون هي تلاوة القران الكريم والتفقه فيه، والعمل به، وقال تعالى: [الحشر: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝} [الحَشر: ١٢]

إن القران الكريم يطهِّر النفوس ويحيي القلوب، ويغذي الأرواح ويصل الأفراد بخالقهم العظيم سبحانه وتعالى، ولا تعجب أيها القارأى الكريم إذا علمت أن أحمد الشريف السنوسي القائد الثالث للحركة السنوسية رحمه الله تعالى كان يشترط في حرسه الخاص حفظ القران الكريم، وأن التعاقب بين جنوده يعرف عن طريق تلاوة الأجزاء

من القران الكريم.

وكانت الحركة في وسائلها التربوية لأتباعها تهتم بأخبار العالم الإسلامي وتوصيلها إلى الأتباع، وكانت الزوايا تقوم بهذا الدور، وكانت القوافل تتوغل في

الدول الإسلامية للتجارة، وتأتي بأخبار الإسلام والمسلمين، والأعداء، وكانت تغذي أتباعها بالتربية الفكرية والنفسية للوقوف ضد أطماع النصارى الغزاة المجرمين وكانت تهتم بالتربية الجسدية لأتباعها، ولذلك نجدهم يقطعون الفيافي والصحارى على الجمال، ثم يجاهدون الأعداء بعد قطع مئات الكيلومترات، وقد وجدت في سيرة عمر المختار رحمه الله أنه قطع على جواده ثلاثة أيام متواصلة ليلها بنهارها لفضِّ النزاع بين عزير المصري قائد ضباط الأتراك وإحدى القبائل، وهذا يدل على لياقة بدنية عالية، وقوة بدنية متميزة.

كان المهدي السنوسي يسير بخطى ثابتة، ووفق أهداف مرسومة، ويستعد للمستقبل؛ حيث بدأت الأطماع الفرنسية تتوغَّل في إفريقية، وبدأت الدول الأوروبية تصطدم مصالحها مع وجود الحركة السنوسية في إفريقية.

سادساً: موقف الدول الأوروبية من الحركة

حققت الحركة السنوسية انتشاراً كبيراً في أواسط إفريقية، وتوطَّد سلطانها في قلب الصحراء الكبرى، وكانت عقبة في طريق الرسالات التنصيرية التي وجدت في الحركة السنوسية خصوماً عنيدين، عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة، فحاولت الدول الأوروبية التقدم والتقرب من الإمام المهدي السنوسي، فكان لا يأبه بمحاولة هذه الدول، من أجل التقرب إليه، وفشلت وسائلهم في اجتذابه إليهم، وأعرض عنهم، وعظمت مخاوفهم من تشكيلاته، وحركاته، وانكبُّوا يسعون لدى الدولة العثمانية، ويشددون الضغط على السلطان عبد الحميد الثاني كي يتوسط

بوصفه الخليفة الأكبر في استدعاء السيد المهدي في إفريقية للإقامة في أرض الحجاز، أو في دار الخلافة وعدم مغادرتها والعودة إلى وطنه، ولكن السلطان لم يجب الدول إلى هذه الرغبة، بل وقف مع محمد المهدي موقفاً مشرفاً.

لقد وجدت الرسالات التنصيرية المسيحية في السنوسيين خصوماً عنيدين عطَّلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة، إن لم يكونوا قد أفسدوا هذه الأعمال في بعض الجهات وأبطلوها، زد على أن نجاح الدعوة السنوسية وتقوية أركانها جعلت الدول الأوروبية تسعى لتوقي خطرها، ووجدت فرنسة نفسها في طريق الاصطدام عاجلاً أو اجلاً مع الحركة السنوسية، أَضِفْ إلى ذلك أصبحت إيطالية بعد وحدتها تتطلع إلى احتلال طرابلس الغرب، وغدت تبذل كل ما بوسعها لكسب المهدي السنوسي، لعلها تظفر

بسكوته حينما تواتيها الفرصة لتحقيق هدفها، وأما ألمانية بعد خروجها منتصرة من الحرب السبعينية شرعت في كسب المهدي حتى يدعمهم ضد فرنسة في إفريقية الغربية[٣٥]، فحاولوا عام (١٨٧٢ م) مفاوضة المهدي على أمل تحريكه ضد الجهات التي خضعت للفرنسيين في إفريقية الشمالية والغربية، ولكن محاولتهم ذهبت سدىً، لأن المهدي رفض مقابلة الرسل الذي أوفدوهم إليه، فغادر هؤلاء البلاد دون أن يتمكَّنوا من الحديث معه، ومع هذا فقد تكررت محاولات الألمان في الأعوام التالية للغرض نفسه، واستطاع الرحالة (جبرار رولفس) في (١٨٧٦ م) أن يزور برقة والكَفْرة، ثم قصد إلى الجغبوب لمقابلة السيد المهدي، وقف عند (سبر سلام) بالقرب منها، وقابله أحمد بن البسكري عدة مرات، ولكنه عجز عن الوصول إلى المهدي السنوسي[٣٦].

تولت فرنسة مهمة الهجوم الإعلامي على الحركة السنوسية، وأرسلت

---

[٣٥] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٦٥، ٦٦).

[٣٦] المصدر السابق نفسه، ص (٦٩).

عدداً من الرحالة منهم (دوفرييه)، ثم وقفت من الحركة موقفاً عدائياً، وشنت عليها حرباً دعائية، بواسطة رحالتها الذين كتبوا عن السنوسية، وقصدت بذلك تشويه الحركة، كما تجلَّى موقفها العدائي في ضغطها على الباب العالي للتضييق على السنوسية، ثم تبلور هذا الموقف في حربها الظالمة لمواقع الحركة السنوسية في تشاد، وسنتحدَّث عنها في موضع اخر.

وكان أكثر الرحالة الفرنسيين تعصباً في كتاباته (دوفرييه) الذي اتَّهَم السنوسية بعدة تهم، وبالغ في تخيلاته، وذلك أنه رأى في الحركة خطراً عظيماً يتهدَّد مصالح فرنسة والمسيحية في إفريقية، وقد اعتبر (دوفرييه) السنوسية مسؤولة عن جميع حوادث الاغتيال التي حدثت في الصحراء ضد بعض الرحالة الأوروبيين، كما اتهمها بالتعصب وكراهية اليهود والنصارى، وصوَّرها عدوّاً فاغراً فاه للقضاء على الأوروبيين، وزعم أنها حرّكت وساعدت جميع الثورات التي قامت في الجزائر، وقد وافق الرحالة «لوي رين» على بعض هذه التهم، وردده‍ا كُتَّاب اخرون مثل (مونتيه) و(هوايت) و(فبرود).

إن السنوسية ما تعرضت لمثل هذه الحرب الدعائية إلا لكونها حركة إسلامية جهادية دعوية شاملة في مفاهيمها[٣٧]، أما اتهامها بالاغتيالات فهذا باطل ومردود بالحجة والبرهان والدليل، بل كان الإمام المهدي يعامل غير المسلمين باللطف والبشاشة والرفق وحسن الخلق، وعندما يريدون الرجوع يرسل معهم من يوصلهم إلى المكان الذي يريدون سواء مصر أو درنة أو بنغازي، ويقول للإخوان: لا بد لنا من إكرام الأجنبي، ويعني: غير المسلم، عسى الله أن يهديه إلى الدين الحق؛ لأن من واجبات المسلم وشعائره إكرام الضيف كيفما كانت ديانته، ليبلغ عنا ما شاهده منا، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[٣٨].

---

[٣٧] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٩٨).

[٣٨] انظر: جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، للحشائشي، ص (١٦٥).

وفي عام (١٣١٢ هـ) قدم الجغبوب رجل إنكليزي، فأراد بعض الإخوان أن يؤذوه، لكنه طلب مقابلة الشيخ المهدي، فأذن له في ذلك، واجتمع به، وسئل: هل له حاجة إلى الشيخ؟ فقال: ما عندي حاجة، إنما القصد من إتياني النظر في وجه الشيخ لما أسمع عنه، وحظي الإنكليزي بالإكرام، وحسن القبول، ومكث عنده ثلاثة أيام ضيفاً كريماً، ثم كرَّ راجعاً إلى طريق مصر[٣٩].

وكان محمد المهدي السنوسي يوصي جميع إخوانه ومشايخ الزوايا، وأتباع الحركة بعدم أخذ أموال السوَّاحين والغرباء ولو من الإفرنج، ويقول على رؤوس الأشهاد: إن قتلهم وأخذ أموالهم لظلم عظيم، والظلم يرجع على فاعله بالنكال والوبال[٤٠].

أما اتهام الحركة السنوسية بكراهية اليهود والنصارى، فالمعلوم عنها تمسكها بالشريعة، فكان أتباعها يعاملون أهل الكتاب حسب توجيهات الإسلام، وأما كراهيتهم للمستعمرين المعتدين، فهذا أمر يوجبه عليهم دينهم، وكان القصد من الحرب الإعلامية الدعائية تمهيد الرأي العام الأوروبي وإقناعه بما ستخطوه فرنسة ضد الحركة فيما بعد، وقد أنصف عدد من الكتاب المحدثين السنوسية، وردوا على تلك التهم، منهم: محمد فؤاد شكري، نقولا زيادة، ريتشارد الحشائشي[٤١].

أما بريطانية فكان موقفها من السنوسية في بداية الأمر استطلاعيّاً، وكانت حريصة على جمع معلومات دقيقة عن الحركة، وخصوصاً وأن لها أطماعاً في مصر، وتخشى من جهاد السنوسية ضدها، كما أن نفوذ بريطانية في طرابلس كان قويّاً، وقد زار الرحالة (هاملتون) الإنكليزي سيوة، وتحدث عن الحركة السنوسية، واستمر موقف بريطانية يمتاز بالهدوء تجاه الحركة السنوسية، حتى عام (١٨٨٢ م)، عندها شرعت

---

[٣٩] المصدر السابق نفسه، ص (١٦٥، ١٦٦).

[٤٠] المصدر السابق نفسه، ص (١٦٧).

[٤١] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٩٩).

بريطانية باحتلال مصر، وقامت ثورة عرابي، وتحركت بريطانية بكافة الوسائل المتاحة لها لتمنع أية مساعدة متوقعة قد تُقدم لعرابي، وتدخلت لدى الدولة العثمانية لمنع الحركة السنوسية من دعم الثورة العرابية[٤٢].

سابعاً: موقف محمد المهدي من الحركة العرابية:

عندما اشتعلت الثورة العرابية عام (١٨٨٢ م)؛ اتصل أحمد عرابي طالباً للعون والمدد، وعلمت بريطانية بالأمر، فتدخَّلت لدى الدولة العثمانية ونشط قنصلها في طرابلس الغرب لمعرفة موقف المهدي، ويتَّضِح من إحدى الرسائل التي بعث بها والي طرابلس إلى ولاية بنغازي بتاريخ (١٦ أغسطس ١٨٨٢ م) أنه انتشر خبر مضمونه: أن عدداً من قبائل برقة تهيؤوا للالتحاق بعرابي، وأن الخبر وصل إلى طرابلس من الآستانة، وأن قنصل بريطانية في طرابلس يستفسر عن صحته، ويقول الوالي: «في حال أن هذا الخبر صحيح نطلب منكم إجراء التدابير الحكيمة»، وقد اتضح لدى تحقيق المسؤولين في بنغازي أن هذه الجماعة التي تريد دخول مصر ما هي إلا حجاج، وأن شيخ الركب هو شيخ الحجاج[٤٣].

إن المهدي السنوسي كان حريصاً على نموه الطبيعي، ولذلك ابتعد عن الدخول في حروب لم يستعد لها، ويبدو أن المهدي السنوسي لم يقتنع بجدوى الثورة، كأسلوب لتحقيق مطالب عرابي؛ لأنها تتيح للأجانب التدخل، وقد وضح هذا الرأي في رسالة بعث بها محمد الشريف أخو المهدي إلى الشيخ مصطفى المحجوب شيخ زاوية الطيلمون بتاريخ (شعبان ١٣٠٦ هـ) بمناسبة قيام إحدى قبائل برقة بالعصيان على الدولة العثمانية، إذ قال فيها: «ونرجو أن تكون الفتنة التي بالوطن قد طفئت؛

---

[٤٢] انظر: دار المحفوظات التاريخية بطرابلس، رسائل الولاة.

[٤٣] انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٠٠).

لأنها مخيفة سيئة العاقبة، تشبه الفتنة العرابية التي من أجلها حل بالوطن الشرقي وأهله ما حل؛ لأنهم يحركونها ويعجزون عنها، فتكون العاقبة التسليم للأجانب، فلو أنهم سلكوا طريقاً غير هذا لكان أسهل وامن عاقبة، وذلك بأن يلتجئوا للحضرة السلطانية، ويلتمسوا من مراحمها الشاهانية، التخفيف من هذا المجهول عليهم قائلين: إنهم لا قدرة لهذا الأمر الشاق، والتكليف بما لا يُطاق، وإن قلتم: لا بد منه؛ نجلو عن الوطن بالكلية؛ إذ لا قدرة لنا على العطاء ولا على المخالفة..»[٤٤].

إن نظرة المهدي للثورات غير المدروسة دراسة دقيقة، تتيح للأجانب التدخل، ويرى أن طريق البناء والتربية والإعداد العقدي، والوسائل السلمية هي الطريقة المثلى، وتجنب الفتنة حتى لا يتدخل الأجانب في شؤون المسلمين، وكان المهدي قد ألزم نفسه وأتباعه سياسة حكيمة رشيدة، بعيدة عن ردود الأفعال، يقول الأستاذ نيقولا زيادة: «طلب العرابيون مساعدته عام (١٨٨٢ م)، وتقدمت إليه إيطالية راغبة في الاتفاق معه على مقاومة التقدم الفرنسي في تونس عام (١٨٨١ م)، وحتى السلطان العثماني طلب منه العون في حربه هذه ضد روسية عام (١٨٧٦ م)، وجرَّب الألمان أن يحصلوا على عون منه، ضد فرنسة في إفريقية عام (١٨٧٢ م)، لكن السيد المهدي رفض جميع هذه العروض والطلبات، وفضل أن يظل بمنأى عن النزاع الدولي ليتم لهم نشر الإسلام وإصلاح أحوال المجتمع المسلم الذي نذر نفسه له، شأن أبيه من قبل»[٤٥].

حاول زعيم الثورة العرابية أحمد العرابي أن يثير الإخوان السنوسيين، وشرح لهم موقفه وجهاده، ومن بين من كتب لهم: السادة: أحمد الريفي، وفالح الظاهري، ومحمد البسكري، وأبي سيف مقرب، ومحمد المدني،

---

[٤٤] انظر: المهدي السنوسي، ص (٥٩).

[٤٥] المصدر السابق نفسه.

وأحمد بن إدريس الأشهب، وأحمد العيساوي، وعندما وصلت الكتب إلى أولئك السادة رفع كل منهم كتابه الخاص إلى السيد المهدي، ورفضوا الرد على عرابي باشا ما لم يؤمروا من السيد المهدي، إذ لا حقَّ لهم في المخابرات السياسية والاتصال في مثل هذه الأحوال بالعالم الخارجي دون أن يأمرهم زعيم الحركة[٤٦].

وهذا يدل على قوة التنظيم، ومتانة الحركة، وهيبة القيادة، وفهم الإخوان وتلاحم الصف، ودراسة الأمور بتأنٍّ.

ثامناً: موقف المهدي السنوسي من الثورة السودانية

سمع محمد أحمد المهدي السوداني بما حققته الحركة السنوسية من نجاح فائق، وانتصار عظيم، وتوسع كبير في الصحراء الكبرى، وفي القبائل الليبية، فرغب بضم هذه الحركة إليه، فأرسل محمد المهدي في عام (١٣٠٠ هـ) رسالة إلى محمد المهدي السنوسي مع أحد أتباعه، واسمه (الطاهر إسحاق) وهو من أهالي البلاد الواقعة غرب دارفور، وقد جاء في الرسالة:

«بسم الله الرحمن الرحيم: الحمد لله الولي الكريم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد واله مع التسليم. وبعد:

فمن عبد ربه الفقير إليه محمد المهدي بن عبد الله، إلى حبيبه في الله محمد المهدي بن الولي السنوسي، فيا أيها الحبيب الواقف على سنة النبي المرشد المرقي العباد إلى مقام التقريب، قد كنا يا حبيبي ومن معنا من الأعوان ننتظرك لإقامة الدين قبل حصول المهدية للعبد الذليل، وقد كاتبناك لما سمعنا باستقامتك ودعايتك إلى الله على السنة النبوية، وتأهبك لإحياء الدين بأن نصير إليك ونجتمع معك، فلم ترد إلينا المكاتبة وأظن عدم وصولها إليك، حتى إني

---

[٤٦] انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٥٤).

ذاكرت المعنيين فأبوا ذلك لهوان الدين عندهم، وتمكن حب الوطن والحياة في قلوبهم، وقلة توحيدهم، حتى بايعني الضعفاء على الفرار بالدين وإقامته على ما طلب رب العالمين، وقنعت نفوس من بايعنا من الحياة لما يرون للدين من الممات، ولا زال المساكين الذين لم يبالوا في الله بما فاتهم من المحبوب يزدادون، وفيما عند الله يرغبون، حتى هجمت المهدية الكبرى من الله ورسوله على عبده الحقير، والله هو الفاعل المختار الذي هو على كل شيء قدير، فأمرني رسول الله (ص) أن أكاتب بها الشرق والغرب من غني أو فقير، فصدق بها من أراد الله سعادته، وكذب بها الأشقياء، وصاروا في النكير، مع أن النبي (ص) قد خلفني بالمهدية مراراً بالجلوس على كرسيه، وألبسني سيفه بحضرة الخلفاء والأولياء والأقطاب والملائكة المقربين والخضر عليه السلام، وأعلمت أنه لا ينصر عليّ أحد بعد إتيان سيف النصر إليّ من حضرته (ص)، ولا زال التأييد من الله ورسوله يزداد، وأنت منا على بال، حتى جاءتنا الأخبار فيك من النبي (ص)، أنك

من الوزراء لي، ثم لا زلنا ننتظرك حتى أعلمنا النبي (ص) والخضر عليه السلام بأحوالكم وما أنتم عليه، ثم حصلت حضرة عظيمة عين فيها النبي (ص) خلفاء خلفائه من أصحابي، فجلس أحد أصحابي على كرسي أبي بكر الصديق، وأحدهم على كرسي عمر، وأوقف كرسي عثمان، وقال: هذا الكرسي لابن السنوسي إلى أن يأتيكم بقرب أو طول، وأجلس أحد أصحابي على كرسي علي رضوان الله عليهم أجمعين.

ولا زالت روحانيتك تحضر معنا في بعض الحضرات مع أصحابي الذين هم خلفاء خلفاء رسول الله (ص)، واعلم وإن كان لا يخفى عليك أن المهدية كعلم الساعة لا يعلمها على الحقيقة إلا الله كما بيَّنه المحققون، كالسيد أحمد بن إدريس، فإنه قد قال: «كتبت في المهدية أربع عشرة نسخة من نسخ أهل الله»، وقال: «سيخرج من جهة لا يعرفونها، وعلى حال ينكرونها». وكذلك قال محيي الدين في بعض

تفاسيره... إلى غير ذلك من أقوال المحققين، ولا سيما وأن المهدية لا تدعى لكثرة أعدائها وقوتهم، وعلى أنها لما ظهرت أنا بينهم أظهرهم في أشد الضعف والقلة، فلولا أنها من الله تعالى ما مكثنا في الدنيا يوماً واحداً من شدة قوتهم وضعفنا، وهم محتاطون بنا من كل جانب، فألقى الله في قلوبهم الرعب ومدهم بالخيبة، وقد أمرنا النبي (ص) بالهجرة إلى جبل الغرب يقال له: قدير، بلصق جبل يقال له: ماسة، فجمعوا جموعهم إلينا مراراً فقتلهم الله وأحرق جلودهم بالنار، يرى ذلك الخاص والعام علامة لشقاوة من أنكر مهديتي، وقد أعلم (ص) أن من شك في مهديتي كافر، وكررها ثلاثاً ومراراً، يقول: من أنكر مهديتي ومن خالفني فأبى أمري كافر، فمن أراد الله له السعادة صدق بمهديتي، ومن جعل الله له شكوكاً وشبهاً تصده عن الإيمان بمهديتي، فيخذله الله في الدنيا قبل الاخرة، إلا من أراد الله تعالى له الهداية بعد. فإذا بلغك جوابي هذا، إما أن تجاهد في جهاتك إلى مصر وجهاتها، أو تهاجر إلينا»[٤٧].

وكان رد السنوسي بقوله: «إنني لم أبلغ منزلة الغبار الذي ثار في أنف فرس عثمان رضي الله عنه في إحدى غزواته مع رسول الله (ص)، ولا جواب عندي على هذا

الكتاب». ثم أمر الرسول بالعودة من حيث جاء[٤٨]، «وأوصى ملك واداي بأن لا يحرك ساكناً مع المتمهدي، بل إذا جاءه محارباً يحاربه»[٤٩].

ولم يؤمن المهدي السنوسي ولا علماء الحركة السنوسية بمهدية محمد أحمد السوداني، وقاوم أتباع الحركة السنوسية في السودان الغربي نفوذ ثورة محمد أحمد السوداني، ويذكر محمد الطيب الأشهب أن

[٤٧] انظر: السودان بين يدي كتشنر وغوردن، إبراهيم فوزي (١/٢١٦).
[٤٨] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٩٠).
[٤٩] المصدر السابق نفسه، ص (١٩١).

سلطان برقو أرسل للمهدي السنوسي يستوضحه ماذا يكون موقفه من التعايشي الذي طلب مؤازرته، فكان رد المهدي: «إنه إنما يعني بالدعوة إلى إصلاح الدين سلماً ولا حرباً، بينما تنفر الملة التي يراد إحياؤها نفوراً عظيماً، بل وتشتد ثورتها ضد الدماء التي يهدرها، والجرائم التي يرتكبها في السودان»[٥٠]، وقد قامت الممالك في السودان الغربي (تشاد) بمحاربة التعايشي خليفة محمد أحمد السوداني، وحدّت من انتشار حركته.

إن علماء الحركة السنوسية وعلى رأسهم المهدي السنوسي لم يؤمنوا بمهدية محمد أحمد، وكذلك رفضوا القول بمهدية المهدي السنوسي، واعتبره محمد المهدي السنوسي نوعاً من التخريف، ويرجع ذلك إلى علمهم المتين، واستيعابهم لكتاب الله والسنة التي بينت حقيقة المهدي المنتظر، والتزموا بعقيدة أهل السنة والجماعة التي وضحت هذا المعتقد.

إن الأحاديث الصحيحة بينت بأن الله تعالى يُخْرِجُ في اخر الزمان رجلاً من أهل البيت يؤيد الله به الدين، يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً وسلاماً، كما مُلئت جوراً وظلماً، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قطُّ، وتُخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء قطراً، وتُعطي المال بغير عدد.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة، والمال وافر، والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم، والخير في أيامه دائم»[٥١].

وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله (ص)، واسم أبيه كاسم أبي النبي (ص)، فيكون

اسمه محمد، أو أحمد بن عبد الله، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله (ص)، ثم من ولد الحسين بن علي رضي الله عنه.

---

[٥٠] انظر: المهدي السنوسي، ص (٥٨).

[٥١] انظر: النهاية، الفتن والملاحم (٣١/١) تحقيق: د. طه زيني.

قال ابن كثير رحمه الله في المهدي: «وهو محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسيني رضي الله عنه»[٥٢]. وصفته الواردة: «أنه أجلى الجبهة، أقنى الأنف»[٥٣].

ويكون مكان ظهوره من قبل المشرق، فقد جاء في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص): «يقتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلوكم قتلاً لم يقتله قوم، ... (ثم ذكر شيئاً لا أحفظه) فإذا رأيتموه فبايعوه، ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي»[٥٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة، يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء، حتى يكون اخر الزمان، فيخرج المهدي، ويكون ظهوره من بلاد المشرق «لا من سرداب سامراء» كما يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه إلى الان، وهم ينتظرون خروجه في اخر الزمان، فإن هذا النوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان، إذ لا دليل على ذلك، ولا برهان لا من كتاب ولا سنة، ولا معقول صحيح، ولا استحسان، إلى أن قال: ويؤيد بناس من أهل الشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سوداً أيضاً، وهو زي عليه الوقار؛ لأن راية رسول الله (ص) كانت سوداء يقال لها: العقاب».

إلى أن قال: «والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في اخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند البيت، كما دلت على ذلك بعض الأحاديث»[٥٥].

---

[٥٢] النهاية، الفتن والملاحم (١/ ٢٩).

[٥٣] الأجلى: الخفيف الشعر ما بين النزعتين من الصدغين، والذي انحسر الشعر عن جبهته.

[٥٤] انظر: ابن ماجه، كتاب الفتن، باب خروج المهدي (٢/١٣٦٧).

[٥٥] انظر: النهاية، الفتن والملاحم، (١/ ٣١).

ذكر الإمام البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله (ص): «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟»[٥٦].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: سمعت رسول الله (ص) يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»، إلى أن قال: «فينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم: تعال صلِّ بنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة»[٥٧].

والأحاديث التي وردت في الصحيحين تدل على أمرين:

أحدهما: أنه عند نزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام من السماء يكون المتولي لإمرة المسلمين رجل منهم.

والثاني: أن حضور أميرهم للصلاة، وصلاته بالمسلمين، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم يدل على صلاح هذا الأمير وهُداه.

وجاءت الأحاديث في السنن والمسانيد وغيرها مفسرة لهذه الأحاديث التي في الصحيحين، ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يُسمى: محمد بن عبد الله، ويقال له المهدي، والسنة يفسر بعضها بعضاً.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله (ص): «منا الذي يصلي عيسى ابن مريم خلفه»[٥٨].

وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله (ص): «ينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم المهدي: تعال صلِّ بنا، فيقول: لا، إن بعضهم أمير بعض، تكرمة الله هذه الأمة»[٥٩].

---

[٥٦] انظر: البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، نزول عيسى ابن مريم (٤٩١/٦) مع الفتح.

[٥٧] انظر: مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم (١٩٣/٢) مع شرح النووي.

[٥٨] انظر: رواه أبو نعيم في «أخبار المهدي»، صححه الألباني، صحيح الجامع الصغير (٧١٧٠/٥).

[٥٩] انظر: المنار المنيف لابن القيم، ص (١٤٧، ١٤٨).

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص): «المهدي مني أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، يملك سبع سنين»[٦٠].

لقد جاءت الأحاديث بالتواتر عن خبر المهدي:

قال الشوكاني: «الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر، وهي متواترة في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الاثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي، فهي كثيرة أيضاً، لها حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك»[٦١].

قال صديق حسن خان: «الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جدّاً، تبلغ حد التواتر المعنوي، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام من المعاجم والمسانيد»[٦٢].

وقال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني: «والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة، وكذا الواردة في الدجال، وفي نزول سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام»[٦٣].

وأما العلماء الذين صنفوا كتباً في المهدي بالإضافة إلى كتب الحديث المشهورة، كالسنن الأربعة، والمسانيد: مسند أحمد، ومسند البزار، ومسند أبي يعلى، ومسند المحارب بن أبي أسامة، ومستدرك الحاكم، ومصنف ابن أبي شيبة، وصحيح ابن خزيمة، وغيرها من المصنفات[٦٤] التي ذكرت فيها أحاديث المهدي، فإن طائفة من العلماء أفردوا في المهدي المنتظر مؤلفات ذكروا فيها جمعاً كبيراً من الأحاديث

---

[٦٠] انظر: سنن أبي داود، كتاب المهدي، (٣٧٥/١١) رقم (٤٢٦٥).

[٦١] انظر: التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح.

[٦٢] انظر: الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة، ص (١١٢).

[٦٣] انظر: نظم المتناثر في الحديث المتواتر، ص (١٤٧).

[٦٤] انظر: عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر للعباد، ص (١٦٦، ١٦٨).

الواردة فيه[٦٥]، وما يؤسف له أن طائفة من الكتاب أمثال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير (المنار) وصف أحاديث المهدي بالتناقض والبطلان، وأن المهدي ليس إلا أسطورة اخترعتها الشيعة، ثم دخلت كتب أهل السنة[٦٦].

وممن أنكر أحاديث المهدي صاحب (دائرة معارف القرن العشرين)[٦٧] محمد فريد وجدي، وسار على نفس الخط أحمد أمين في كتابه (ضحى الإسلام).

ويبدو أن هؤلاء الكتّاب تأثَّروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون في تضعيفه لأحاديث المهدي، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يقبل قوله في التصحيح والتضعيف، ومع هذا فقد قال بعد أن استعرض كثيراً من أحاديث المهدي وطعن في كثير من أسانيدها: «فهي جملة الأحاديث التي خرّجها الأئمة في شأن المهدي، وخروجه اخر الزمان، وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه»[٦٨].

قال يوسف الوابل في (أشراط الساعة) تعليقاً على قول ابن خلدون: «ونقول: لو صح حديث واحد، لكفى به حجة في شأن المهدي، كيف والأحاديث فيه صحيحة متواترة»[٦٩].

قال الشيخ أحمد شاكر ردّاً على ابن خلدون: «إن ابن خلدون لم يحسن قول المحدثين: الجرح مقدم على التعديل، ولو اطلع على أقوالهم وفقهها، ما قال شيئاً مما قال، وقد يكون قرأ وعرف، ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدي بما غلب عليه من الرأي السياسي في عصره»[٧٠].

---

[٦٥] انظر: الدولة العبيدية، لعلي محمد الصلابي، ص (٦٢).

[٦٦] انظر: تفسير المنار (٤٩٩/٩ ٥٠٤).

[٦٧] انظر: دائرة معارف القرن العشرين (٤٨٠/١٠).

[٦٨] انظر: مقدمة ابن خلدون (٥٧٤/١).

[٦٩] انظر: أشراط الساعة للوابل، ص (٢٦٧).

[٧٠] انظر: مسند الإمام أحمد (١٩٧/٥ ١٩٨).

ثم بين أن ما كتبه ابن خلدون في هذا الفصل عن المهدي مملوء بالأغاليط في أسماء الرجال ونقل العلل، واعتذر عنه بأن ذلك قد يكون من الناسخين، وإهمال المصححين.

إن ما ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد رحمهم الله تعالى ليس صواباً، وإنما الحجة في كتاب الله وسنة رسوله (ص)، والروايات المذكورة في خروج المهدي صحيحة متواترة تواتراً معنويّاً، وهذا يكفي، وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الإسرائيليات، وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل

العصبيات، فهذا صحيح، ولكن أئمة الحديث قد بينوا الصحيح من غيره، وصنفوا الكتب في الموضوعات وبيان الروايات الضعيفة، ووضعوا قواعد دقيقة في الحكم على الرجال، حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله السنة من عبث العابثين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وهذا من حفظ الله لهذا الدين.

وإذا كانت هناك روايات موضوعة في المهدي تعصباً فإن ذلك لا يجعلنا نترك ما صح من الروايات فيه، والروايات الصحيحة جاء فيها ذكر صفته واسمه واسم أبيه، فإذا عين إنسان شخصاً، وزعم أنه هو المهدي، دون أن يساعده على ذلك ما جاء من الأحاديث الصحيحة، فإن ذلك لا يؤدي إلى إنكار المهدي على ما في الحديث، ثم إن المهدي الحقيقي لا يحتاج إلى أن يدعو له أحد، بل يظهره الله إلى الناس إذا شاء، ويعرفونه بعلامات تدل عليه.

وأما دعوى التعارض، فقد نشأت عن الروايات التي لم تصح، وأما الأحاديث الصحيحة، فلا تعارض فيها والحمد لله، وأيضاً فإن خلاف الشيعة مع أهل السنة لا يُعتد به، والحكم العدل هو الكتاب والسنة الصحيحة، وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم، فلا يجوز أن تكون عمدة يُردُّ بها ما ثبت من حديث رسول الله (ص)[٧١].

---

[٧١] انظر: أشراط الساعة، ص (٢٦٧).

قال العلامة ابن القيم في كلامه عن المهدي: «وأما الرافضة الإمامية، فلهم قول رابع؛ وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر، من ولد الحسين بن علي لا من ولد الحسن، الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار، الذي يورث العصا، ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلاً صغيراً من أكثر من خمسمئة سنة، فلم تره بعد ذلك عين، ولم يُحس فيه بخبر ولا أثر، وهم ينتظرونه كل يوم ويقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا اخرج يا مولانا، ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه، ولقد أحسن من قال:

ما ان للسرداب أن يَلد الذي ... كلمتموه بجهلكم ما انا؟
فعلى عقولكم العفاءُ فإنَّكم ... من ثلَّة العنقاء والغيلانا

ولقد أصبح هؤلاء عاراً على بني ادم وضحكة يسخر منهم كل عاقل»[٧٢].

إن التهمة الموجهة للحركة السنوسية بأن أتباعها يعتقدون في الإمام محمد المهدي السنوسي هو المهدي المنتظر تهمة باطلة، رفضها الإمام محمد المهدي، وعارضها، وأبى الموافقة على القول بها، وعندما سئل الملك محمد إدريس رحمه الله عن رأي أبيه في قول بعض أتباع الطريقة بمهديته أجاب: «كان كلما سمع هذا القول نفاه بشدة، وأبداً لم يعتقد به...»[٧٣].

---

[٧٢] انظر: المنار المنيف، ص (١٥٢، ١٥٣).

[٧٣] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٨٧).

المبحث الثاني
موقف محمد المهدي السنوسي والليبيين من الدولة العثمانية وفكرة الجامعة الإسلامية

في بداية عهد السلطان عبد الحميد الثاني طلب من السيد محمد المهدي السنوسي إرسال قوة من رجاله من الأقطار البرقاوية الطرابلسية لمساعدة الدولة العثمانية في حربها ضد روسية عام (١٨٧٧ م)، إلا أنَّ السنوسي امتنـع عن تنفيذ الطلب، لانشغاله بالبناء والتربية والتكوين، والانتشار بالدعوة، والاستعداد للجهاد، وهذا الامتناع جعل السلطان عبد الحميد يرسل الرسل إلى الإمام المهدي السنوسي للوقوف على حقيقة أمره، وبذل السلطان عبد الحميد الثاني جهداً كبيراً في سبيل التعرف على طبيعة الحركة السنوسية، وحقيقة نواياها، وأهدافها، ومدى استعداد زعيمها للعمل ضمن سياسته في الجامعة الإسلامية، وتمت الخطوة الأولى في هذا المجال بطلب من الداخلية العثمانية إلى واليها في طرابلس، لموافاتها بمعلومات عن الحركة ونشاطها.

أجاب الوالي كمال باشا (١٨٩٣ ١٨٩٨ م) بما يُشعر بحسن علاقة الوالي بالحركة السنوسية، واطمئنانه إلى نواياها، وثقته برجالاتها، وأكَّد في رسالته التي بعثها للسلطات العثمانية في إستانبول على الفوائد العلمية والاجتماعية التي حققتها زوايا الحركة السنوسية المنتشرة

في الصحراء الكبرى[٧٤] بين أعراب البادية، ورفع مستوياتهم الدينية والخلقية والثقافية، ومزاحمتها الفعالة للجمعيات التنصيرية المنبثة في القارة الإفريقية، ودخول الكثير من الزنوج في الإسلام بتأثير دعايتها له، وأكد

الوالي في ختام رسالته، انقياد الحركة بزواياها وقادتها إلى دولة الخلافة العثمانية[٧٥].

وأوفد السلطان عبد الحميد بعثة برئاسة رشيد باشا والي بنغازي ومعه الصادق المؤيد العظم أحد ياورات السلطان إلى واحة الجغبوب في ليبية، وذلك عام (١٨٨٩ م)، ومما جاء في أخبار البعثة أن المهدي السنوسي قد أحسن استقبال البعثة وأتاح لأعضائها مشاهدة زاوية الجغبوب والاطلاع على أعمال أتباع السنوسية، وأن المهدي السنوسي لم يكن إلا داعياً مرشداً، وإنه يدعو بالتأييد للدولة العثمانية وتوفيق الحضرة السلطانية[٧٦].

وبعد انتقال المهدي السنوسي من واحة الجغبوب إلى واحة الكَفْرة في أقصى الجنوب من ولاية طرابلس عام (١٨٩٥ م)، أرسل أحد أتباعه وهو الشيخ عبد العزيز العيساوي إلى إستانبول، لتأكيد إخلاصه وولائه للسلطان العثماني، وليطلب منه تأكيد الفرمانات التي صدرت من قبل للسنوسيين[٧٧].

أصدر الباب العالي أوامره في إجراء التأكيدات اللازمة لولاية طرابلس ومتصرفية بنغازي، في التزام الاهتمام والرعاية، والاحترام تجاه الحركة السنوسية وأتباعها، وتقديم فريد العناية بكافة الزوايا[٧٨].

وقد أرسل السلطان مع الشيخ العيساوي هدايا للمهدي السنوسي؛

---

[٧٤] انظر: حركة الجامعة الإسلامية، أحمد الشوابكة، ص (٢٣٠).

[٧٥] انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٠٤، ٢٠٥).

[٧٦] انظر: حاضر العالم الإسلامي (١٦٢/٢).

[٧٧] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٥٨).

[٧٨] المصدر السابق نفسه.

من بينها نسخة مطبوعة من (صحيح البخاري) له خاصة، خلاف عشر نسخ أخرى تعطى من قبله لمن يرى فيه الأهلية، كما أرسل له ساعة «لتكون في الأوقات الخمسة مذكرة بصالح دعواته لجنابه العالي»[٧٩].

وردَّ السلطان على هذه البعثة بإرسال الصادق المؤيد العظم بزيارة المهدي السنوسي في واحة الكفرة، وهناك اطَّلع الصادق بنفسه على أحوال الزاوية، واجتمع بالمهدي الذي استقبله استقبالاً طيباً، واطمأنَّ لحسن توجهه نحو السلطنة العثمانية ،

ومما ذكره الصادق المؤيد العظم في رحلته عن المهدي «أنه شيخ صادق لمقام الخلافة، وحسب وصية والده، فهو في كل صباح عقب الصلاة يجري الدعاء بالصحة والعافية لخليفة المسلمين، ثم تقرأ الفاتحة، وذلك في جميع الزوايا، وهو دائماً يوصي أتباعه بطاعة أمير المؤمنين، ومحبة الدولة العثمانية؛ لأن طاعته واجبة شرعاً وعقلاً»[٨٠].

ومما زاد السلطان عبد الحميد ثقة بالحركة السنوسية كثرة شكايات الدول الأوروبية من الحركة، وتبرم قناصل الدول من نشاطها، لعرقلتها الكثير من مشاريعهم التبشيرية التي كانوا ينوون تنفيذها[٨١].

وحين اطمأن السلطان عبد الحميد الثاني إلى صدق توجه الحركة السنوية لدولة الخلافة العثمانية وإخلاصها في العمل لسياسة الجامعة الإسلامية، بعث السلطان عبد الحميد إلى محمد المهدي السنوسي رسالة تتضمن أسس حركة الجامعة الإسلامية، وحقيقة أبعادها وأهدافها، والدور الذي يمكن أن تقوم به الحركة السنوسية ضمن هذه السياسة[٨٢].

وأكَّد السلطان في رسالته على أهمية الخلافة والإمارة الإسلامية المقدسة التي أثبتها الله في البيت العثماني منذ مئات السنين، وما افترضه

---

[٧٩] المصدر السابق نفسه، ص (٨٦).

[٨٠] انظر: رحلة إلى صحراء إفريقية الكبرى، صادق المؤيد، ص (٤٨ ٤٩).

[٨١] انظر: تعليق على حاضر العالم الإسلامي، شكيب أرسلان (١٦٢/٢).

[٨٢] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٨٧).

الله على المسلمين من نصرة هذه الخلافة وتأييدها، وطاعة ولاة الأمر القائمين على أمرها، ولا سيما في مثل هذه الظروف التي تحيط بالعالم الإسلامي، والتي جمع فيها من سماهم السلطان: «الأغيار من الكفار والملاحدة والمارقين والمفسدين في جميع الأقطار يتحزبون ويتوالون في السر والعلن خصومة للسنة والسنية، وعزماً على هدم منار الخلافة العثمانية الإسلامية، ويأبى الله إلا أن يتم نوره»[٨٣]. وحذَّر السلطان عبد الحميد محمداً المهدي السنوسي من عمليات التسلل الأوروبي إلى داخل القارة الإفريقية تحت شعار الكشف الجغرافي، والبحث العلمي من جانب الإنكليز والإيطاليين وغيرهم، مبيناً المقاصد المضرة بالدين والمسلمين من قبل هؤلاء(٤).

وأكد السلطان عبد الحميد الثاني على أهمية تبصرة كل من له علاقة بالسنوسية والمتبين طرقها وزواياها المنتشرة في الصحراء الإفريقية بضرورة الالتفاف حول الخلافة العثمانية المقدسة، والإمامة الكبرى الإسلامية، التي هي ضمان قوة المسلمين، وشعار وحدتهم وتضامنهم[٨٤].

كما بيَّن لمحمد المهدي السنوسي الوسائل العلمية الواجبة الاتباع لمواجهة أعمال المبشرين، وأعداء الإسلام والمسلمين في القارة الإفريقية، لكشف وسائلهم وأهدافهم الكبرى، وذلك بتكثير أعداد الدعاة والعلماء، وإعدادهم الإعداد المناسب، وبثّهم في كافة الأنحاء الإفريقية لنشر الإسلام بينهم، وتبصيرهم بأمور دينهم، والتأكيد على أهمية الخلافة في حياة المسلمين، ودور الوحدة والتضامن في دفع غائلة المعتدين، وأعداء الملة والدين(١).

إن الليبيين عموماً ارتبطوا بفكرة الجامعة الإسلامية، وسياسة الدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد الثاني؛ الذي تبنَّى الدعوة إليها، وأكدوا

---

[٨٣] المصدر السابق نفسه.

[٨٤] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٨٨).

في كل مناسبة ارتباطهم بهذه الدعوة، وخاصة في أزمات الدولة، ففي حرب الدولة مع اليونان سارع أهل طرابلس بتشكيل اللجان لجمع التبرعات، وقد كتب على الاستمارات المعدة للجمعة عبارة (إعانة جهادية)، وبلغ مجموع التبرعات قرابة (مئة ألف فرنك)[٨٥].

وامتدح الشيخ سليمان الباروني (١٨٧٠ ١٩٤٠ م) أحد الزعماء الليبيين الدولة العثمانية وسلطانها، وأشاد بجيشها بمناسبة حربها مع اليونان وانتصارها عليهم[٨٦].

وأنشد الشاعر مصطفى بن زكرى بهذه المناسبة قصيدة قال فيها:

يا سعد سر مترنماً ... ببشائر السعد المبين
واعطف على دار الـ ... ـخلافة باليسار وباليمين
وإذا مررت «بيلدز» ... وسعدت بالملك المكين
تاج الخلافة بهجة ... الدنيا وعز المسلمين
عبد الحميد وناصر ... الدين الحنيفي المبين[٨٧]

وعن اليونانيين أعداء الخلافة، قال:

مهلاً بني اليونان لستم ... في الحروب بمعجزين
وجنودكم أمست «بترناوة» ... حصيداً خامدين(١)

– وساهمت صحافة ليبية في المدن رغم نشأتها المتأخرة بدعم حركة الجامعة الإسلامية، ففي أول ديسمبر (١٩٠٨ م) ظهرت جريدة (الكشاف)، وكان صاحب امتيازها ومديرها المسؤول محمد النائب الأنصاري، ووصف الجريدة بأنها ملتزمة بخط الجامعة الإسلامية[٨٨].

وفي أوائل مارس (١٩٠٨ م) صدر العدد الأول من جريدة (العصر

[٨٥] انظر: الحواليات الليبية، شارك فيرو (٣/٧٧٤).
[٨٦] انظر: صفحات خالدة من الجهاد، زعيمة الباروني، ص (٨٠).
[٨٧] انظر: صلات بين ليبية والترك، للمصراتي، ص (١٨٢ ١٩٦).
[٨٨] انظر: صحافة ليبية في نصف قرن، علي المصراتي، ص (١٠٠).

الجديد) التي وصفت نفسها بأنها سياسة علمية، وجعلت شعارها (من الشعب إلى الشعب)، وتعاطفت مع (اللواء) المصرية، كما سارت في تيارها بتبني فكرة الجامعة الإسلامية[٨٩].

وفي إستانبول أصدر الزعيم الليبي عبد الوهاب عبد الصمد صحيفة (دار الخلافة)، وجعلت محور سياستها الدفاع عن الخلافة والجامعة الإسلامية[٩٠].

وأسس الشيخ سليمان الباروني في القاهرة مطبعة عام (١٣٢٥ هـ/١٩٠٨ م) سمَّاها (الأزهار البارونية)؛ التي حدد هدفها قائلاً: «أن تكون خادمة للدين، سائرة في ركاب الجامعة الإسلامية، ناشرة للاداب ولكل ما فيه نفع وإرشاد الأمة والهيئة الاجتماعية مترقية في مدارج التقدم»[٩١]. وأصدرت المطبعة جريدتها باسم (الأسد الإسلامي) في عام (١٩٠٨ م)[٩٢].

اهتم سليمان الباروني بفكرة الجامعة الإسلامية، واتخذ من جريدته منبراً لإعلاء فكرتها، ومجالاً لبحث مشاكل المسلمين وتقصِّي أخبارهم، ومما جاء في افتتاحية العدد الأول منها:.. فقد كان الرشاد في الأمة في زمن انقياد أفرادها بطبيعتهم

لقوانين الشرع الشريف، ووقوفهم عند مناهيه، ثم لما دارت الأيام بدوران الدهر، وتغيرت الطبائع باختلاف أصناف البشر، وقع التساهل في أمر الدين، وانحلت عرا الاتحاد، وساد الشقاق، وتؤكد الجريدة أنه سيكون على رأس اهتماماتها بذل النصح للأمة الإسلامية، وإرشادها إلى ما يعود عليها بالنفع العاجل والاجل، والتقدم في مباراة الأمم الحية، ومزاحمتها في معترك الحياة الهنيئة[٩٣].

---

[٨٩] المصدر السابق نفسه، ص (٧٣).

[٩٠] المصدر السابق نفسه، ص (١٠٩).

[٩١] انظر: صفحات خالدة من الجهاد، ص (٤٠).

[٩٢] انظر: الحوليات الليبية (٧٨٦/٣).

[٩٣] انظر: صفحات خالدة من الجهاد، ص (٢٠).

وتساءل الباروني عن الأسباب الكائنة وراء فرقة المسلمين وتفككهم، وما إذا كان ممكناً لَمُّ شعثها، وتوحيد كلمتها في هذا الزمن الذي هم فيه أحوج إلى الاتحاد من أي شيء اخر[٩٤]، وهو يؤكد أن هذا ممكن، مدللًا عليه بشدة اهتمام أوروبة وساستها وكتابها بملاحظة الحالة التي بدأت تظهر بين المسلمين، بفعل ما يبديه سلطانهم عبد الحميد وإلى جانبه المخلصون للعمل في سبيل تحقيق ما بينهم من جامعة تضم كلمتهم وتوحِّد رأيهم وتجمع شتاتهم أينما كانوا في أطراف المعمورة، حتى إذا ما كانوا يداً واحدة، وعلى قلب رجل واحد، ناقشوا أوروبة الحساب وناصبوها الحرب[٩٥].

وقد ظل عموم الليبيين على ولائهم للدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد؛ فهو بالنسبة لهم خليفة المسلمين، وملجأ الدنيا والدين، ودولته ملاذ المسلمين جميعاً ودرعهم الواقي ضد محاولات أوروبة للنيل من استقلالهم[٩٦].

واستمر هذا الشعور قائماً لدى أهل المدن في ليبية، وزعماء الحركة السنوسية وأتباعها، حتى قام حزب الاتحاد والترقي في تركية بإبعاد السلطان عبد الحميد الثاني (١٩٠٨ م) فلم يشعر أهل الولاية إزاء هذه الحركة بالاطمئنان، ولم يستبشروا بها خيراً، بل قابلوها بالمعاداة والاستهجان، لما عرفوه عن الاتحاديين من «بعد عن الحكمة ومناهضة الدين»[٩٧]، واستهجن الليبيون إعلان الدستور، ولم يروا مبرراً لصدوره؛ خاصة والشريعة الإسلامية كفيلة بسد حاجتهم، ووقع إثر ذلك حوادث

كبيرة في طرابلس ضد الحركة والقائمين بها، وطالب غالبية الناس بإبعاد من قدم إلى الولاية من الاتحاديين(١).

[٩٤] المصدر السابق نفسه، ص (٣١).

[٩٥] المصدر السابق نفسه، ص (٢٣).

[٩٦] انظر: قضية ليبية، محمود الشنيطي، ص (٢٧).

[٩٧] انظر: حركة الجامعة العربية، الشوابكة، ص (٢٣٧).

ويذكر كاكيا: «إن الأهالي في ليبية نظروا إلى الجمعية بغير عين الرضا، وكرهوا رجالها، لتدخُّلهم في مسائل العادات والدين، وعدّوا إعلان الدستور انتهاكاً للشريعة الإسلامية»[٩٨].

إن زعماء الحركة السنوسية كانوا شديدي الولاء للدولة العثمانية، وكذلك زعماء المدن الليبية، وهذا يدلُّ على الوعي العميق وشعورهم بضرورة مساندة دولة الخلافة، والمحافظة عليها من منطلق شرعي يدينون به للمولى عز وجل، وكان هذا الفهم منبثقاً من فهمهم لقول الله تعالى: [ال عمران: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا} [آل عِمرَان: ١٠٣]، وقال تعالى: [ال عمران: {وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞} [آل عِمرَان: ١٠٥]، فقد كان أجدادنا يرون: «ونرى الجماعة حقاً وصواباً، والفرقة زيغاً وعذاباً»[٩٩].

وإن كانت الخلافة الإسلامية العثمانية خرجت في اخر أيامها عن خطها الصحيح لأسباب وعوامل داخلية وخارجية، إلا أنها لا زالت في دائرة الإسلام، ولم تمرق منه مروق السهم، وخصوصاً قبل عزل السلطان عبد الحميد الثاني؛ ولذلك رأى زعماء الحركة السنوسية والليبيون عموماً عدم الخروج على الدولة العثمانية: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم طاعة لله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة»[١٠٠]، هكذا كان موقف الحركات السنوسية وزعماء ليبية من الدولة العثمانية.

---

[٩٨] انظر: ليبية في العهد العثماني، كاكيا من الترجمة العربية، ص (٦٠).

[٩٩] انظر: تهذيب الطحاوية، للصاوي، ص (٢٩٦).

[١٠٠] المصدر السابق نفسه، ص (٣٠٢).

المبحث الثالث
رحلة المهدي السنوسي إلى الكفرة وقرو

أولاً: الرحلة إلى الكفرة والصدام مع فرنسة

كانت خطة التوسع عند الحركة السنوسية تستدعي من زعيمها محمد المهدي الانتقال نحو الجنوب وفق خطوات مرسومة، ومراحل معلومة لدى قادة الحركة، وتقرر لدى محمد المهدي الانتقال من الجغبوب إلى الكفرة، وشرع في تنفيذ القرار الاستراتيجي بسرعة البرق، فجُمعت الإبل الكافية للنقل، وخبراء الطرق، والأمتعة الضرورية، وعين الإمام السنوسي رفقاءه في سفره إلى العاصمة الجديدة، وفي يوم (٢٢ شوال سنة ١٣١٢ هـ) جمع الإمام السنوسي جميع سكان الجغبوب للوداع، وألقى فيهم نصائحه الغالية، وانتقل بعد ذلك من الجغبوب والأفئدة تتقطع لهول الفراق، والأعين وراءه شاخصة، فنزل بموقع قريب من الجغبوب يقال له: حطيئة «الزربي»، وبهذا المكان كان وداع المشيعين وفي طليعتهم كبار الإخوان، كالسيد أحمد الريفي، ومحمد عابد السنوسي، وأبي سيف مقرب، ومحمد المدني، وأحمد بن إدريس، وعمران السكوري، وهنا يظهر جلال الموقف وشدة الفراق، ونلمس ذلك في القصائد التي ألقيت يوم ذاك[١٠١].

---

[١٠١] انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (٢١٧).

يقول الأديب الحشائشي: ولما أفاق أبو يوسف مقرب من غشيته التي أصابته من مفارقة الشيخ المهدي؛ صعد فوق هضاب عال ومعه جماعة من الإخوان، وتوجه إلى الركب بنظره، وطفق ينشد ارتجالاً من شعره العذب ما يلين به الجلمود، ويورق به العود[١٠٢]؛ حيث قال:

همو هيجوا يوم النوى أشجاني ... وحاديهم لما ترنم أشجاني
وهم سلبوا لبي وألبس بينهم ... رداء الردى جسمين وأثواب أحزاني
وهم غادروا جسمي لظىً بعد مهجة ... جرى ذويها من بحر مدمعي القاني
فوالله لا أنسى عشية ودعوا ... فأودعتهم صبري وأودعت سلواني
وضاعف أحزاني مواقف جَمَّةٌ ... وَبَرَّحَ بي فقدانهن وأضناني
يسائلني مولاي تسال رحمة ... يحل بها شأني ويبئس الشاني
ومن أعجب الأشياء رحلة معشر ... غدت محشراً أوهت قوى كل إنسان
تبلد من جرائها كل سوقة ... وطأطأ إجلالاً لها كل سلطان
وزُلْزِلَتِ الدنيا ومَاجَت بأهلها ... وعادت عوادٍ بين ترك وعربان
لك الله من ركب تيمم كفرة ... تتاخم كيوار المتاخم سودان
غدا طاوياً نشر البسيطة باسطاً ... لأعلام عز تنجد الضارع العاني
ومنتقياً عزماً يفل بحده ... قواطع اراء من أهل وجيران
ولم يثنه عما نوى ألم النوى ... وَأَنَّة مُحزونٍ وَرنَّةُ صبيان
وحَثُّوا مطاياهم ببيض قبابهم ... فلاحت نجوم دونها نجم كيوان
سروا والدياجي حالِكٌ صُبْحُ لَونِهَا ... يؤمون أحقافاً تُرى ذات ألوان
وخلوا بجغبوب المقدسة علية ... يعلون بعداً النهل طلاب عرفان
وقصراً مشيداً كان مطمح أنفس ... ومطلع مطعام ومطعن مطعان
ربعاً عهدنا بهوه وهو اهل ... بإنجاب أشبال واساد خفان
وكانت لهم فيه مواقف جمة ... أناب لها فخراً على كل إيوان
وحلت بواديه بوادٍ فأصبحوا ... نشاوى بإنشاد وذكر وقران

---

[١٠٢] انظر: رحلة الحشائشي، ص (١٦٨).

وكانت بمغناه علوماً يبثها ... مشايخ أعلام، وأعلام فتيان
رووا متنها عن حافظ أي حافظ ... أسانيده تعلو بضبط وإتقان
هو «ابن السنوسي» الذي شاع ذكره ... بكل بلاد بين سوس وإيران
إمام همام كان للحق قبلة ... تيممها القاصي من الخلق و الداني
وشهرته تغني عن إطراء مدحه ... كما اشتهر «المهدي» بالعالم الثاني
سقى الله أرضاً زارها صَوْبُ قطره ... وساق لذاك القطر عارض نسيان
على أنها تغني بعذب نواله ... ومدراره عن كل أوطن هتان
متى تستشفي نفسي بقرب لقائه ... ويستن طرف الطرف في روض إحسان
متى يأتي مولاي الشريف مصاحباً ... كتائب كتاب ببيض ومران
فإني من رجعاكم لست ايساً ... ولا يأس من روح ورحمة رحمن
وإني مقيم سادتي برحابكم ... على عهدكم حتى أُلَفَّ بأكفان
وإني لأرجو نظرة من مقامكم ... تسلي عن الدنيا وزخرفها الفاني
عليكم سلام الله ما هبت الصبا ... تحية صب خافض القلب هيمان[١٠٣]

- لقد كان قرار انتقال الإمام المهدي إلى الكَفْرة مفاجأة لأهالي ليبية، واهتزت البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وترك أثراً حزيناً أليماً في النفوس، ووصفه أحد الشعراء باللغة الشعبية فقال:

رحل سيدي وارعب لوطان ... عظيم الشان حركاته بإذن الرحمن
رحل سيدي وارعب لسلام ... لها صارت شدا أو نكد
وصارت بعد الضي ظلام ... عليك ضيقاً في شدائد[١٠٤]

- وكان الإخوان الذين رافقوا الإمام المهدي السنوسي في رحلته كل من: أحمد البسكري، أحمد التواتي، أحمد الجراولي، أحمد الثني الغدامسي، محمد السني، وغيرهم من كبار الإخوان[١٠٥].

[١٠٣] انظر: رحلة الحشائشي، ص (١٦٩، ١٧٠)، برقة العربية، ص (٢١٧، ٢١٨).
[١٠٤] انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (٢٢١).
[١٠٥] انظر: رحلة الحشائشي، ص (١٧١).

ولما بلغ الشيخ واحة (الكَفْرة) تلقته قبيلة (زوية) من كبار قبائل العرب في الصحراء، ومن جاورها من القبائل، وكانوا في غاية الفرح والسرور، وكان في استقباله خارج منطقة الجواف أكثر من ثلاثة الاف رجل؛ يتقدمهم رئيس زاوية الجوف ومشايخ وأعيان قبيلة زوية ومن معهم من المجابرة، وابتهجت واحة الكفرة بقدوم زعيم الحركة السنوسية، وتبارت الخيول، وأطلق الرصاص، وبهذه المناسبة قتل يونس الرويعي رجلاً من قبيلة الزوية بإصابة خطأ، فنادى شيوخ الزوية أعيانهم في قومهم بأن لا يترك الاحتفال من أجل موت أحدنا، وأن القاتل في مأمن إكراماً للإمام السنوسي، وبعد انتهاء الاحتفال اجتمع شيوخ وأعيان القبيلة وتقاسموا الدية الشرعية للمقتول، ودفعوها إلى أهله فوراً، وتسامحوا مع القاتل، كل ذلك تم في

يومه، قرر جميع أعيان وشيوخ زوية أن يتقدموا بهدية إلى زعيم الحركة السنوسية بمناسبة تشريفه إياهم بقدومه، وكانت الهدية هي التسامح فيما بين أفراد وقبائل زوية من الأحقاد، والتنازل عن حقوقهم التي يطلبها أحد أفراد القبيلة من الاخر، وتطلبها عائلة من أخرى مهما عظمت تلك الحقوق التي قد تؤدي إلى شقاق وفساد، وتنازلوا عن ثلث ممتلكاتهم وقفاً لأعمال الحركة السنوسية من نخيل وبساتين وأراضٍ، كل ذلك عن طيب خاطر وقربة لله، ودعماً للحركة الإسلامية التي تبنت دعوة الإسلام في الصحراء الكبرى، وأدغال إفريقية، وتبرع جميع أغنياء القبيلة ومن معهم من تجار المجابرة بإطعام جميع الفقراء وكسوتهم، واستمر الفرح والاحتفال شهراً بعد وصول زعيم الحركة السنوسية الثاني الإمام المهدي، وشرع الإمام المهدي في بناء زاوية التاج التي اختطها محمد البسكري، حسب توجيهات زعيم الحركة، فأبدع في تخطيطها، وجعلها على قمة ربوة عالية تبعد عن زاوية الجوف بما لا يقل عن ميل ونصف تقريباً[١٠٦].

---

[١٠٦] انظر: برقة العربية، ص (٢١٩، ٢٢٠).

أصبحت الكفرة عاصمة الحركة السنوسية لوجود زعيمها فيها، ففتحت المدارس لتعليم القران الكريم، وتصدر مجالس التدريس كبار العلماء، وتقدمت سوقها التجارية تقدماً باهراً، إذ أصبحت تردها بضائع السودان، وتصدر إليه عنها، وهكذا الحال بينها وبين برقة من جهة، وبينها وبين مرص من جهة أخرى، وتحسنت زراعتها إلى حد بعيد، وجلبت إليها أشجار الفاكهة من واحة سيوة ودرنة، وغيرها، وعمرت بالسكان الذين هاجروا إليها من المجابرة والتبو والسودانيين، فضلاً عن سكانها المعروفين من قبائل الزوية، حتى أصبحت ذات أهمية كبرى في وقت قصير[١٠٧]، وأصبحت قبيلة الزوية بمثابة الحرس الخاص لزعيم الحركة السنوسي[١٠٨].

تولى المهدي السنوسي تصريف أمور الحركة من الكفر، فعجت بالحركة، وأصبح أتباع الحركة يقدمون إليها من كل حدب وصوب، حتى ضاقت بهم مساكنها، وفي إحدى رسائل المهدي إلى محمد علي المحجوب في زاوية الطيلمون

بليبية يطلب المهدي إرسال خيام؛ لأن وفوداً كثيرة جاءت للتسليم عليه، وهو خجل لعدم وجود بيوت تؤويهم[١٠٩].

وقام الإمام السنوسي بإرسال رسله إلى مختلف الجهات، فأرسل مرتضى فركاش بن أبي خريص بكتاب إلى سلطان واداي ومعه رجلان، وأرسل رسالة لوالي بنغازي، وانتظمت الرسائل بينه وبين الزوايا، ونظم حياة الأهالي في الكفرة، وفرض النظام، ومنع الاعتداءات، ونشر السلام بين قبيلتي زوية والتبو اللتين تسكنان تلك المنطقة، ووجه الأتباع نحو العمل المثمر، سواء في تعمير الزوايا، والدعوة إلى الله، أو في التجارة، وقد زاد تبعاً لذلك عدد سكان الكفرة، وانتعشت حياة الأهالي، وعم

---

[١٠٧] المصدر السابق نفسه، ص (٢٣٧).

[١٠٨] انظر: المهدي السنوسي، ص (٧١).

[١٠٩] انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٢٠).

الرخاء، واهتم بحفر الابار المتتابعة على طول خطوط القوافل، فكان يرسل البعثات لإتمام ذلك، وأصبحت الكفرة ملتقى القوافل ما بين السودان الغربي «تشاد» والسودان الشرقي وسواحل برقة.

ومن البعثات الاستكشافية التي أرسلها الإمام السنوسي التي اكتشفت حطية العوينات والحطايا التي تكتنفها ولم تكن معروفة قبل ذلك، كما يقول الأشهب[١١٠]، وخفّ إلى تلك الحطايا عدد من رجال قبيلة زوية، وكانت تلك القبيلة صادقة في وعدها لإمام الحركة السنوسية، فقامت بأعمال كبيرة لصالح الدعوة الإسلامية، ويبدو أن ابن السنوسي المؤسس عرف قدراتها، فاهتم بها، ويظهر هذا جليّاً في حواره مع عقيلة الزوي عند بناء الجغبوب؛ حيث حدثه عن رغبته في بناء زاوية في الكفرة، وقال له: «مرادنا في كونكم تتولون أمرها»، فكان أن أسس زاوية الجوف التي عرفت نسبة إلى ابن السنوسي باسم زاوية الأستاذ[١١١].

وأنشئت في فترة الإمام المهدي عدة زوايا في منطقة الكفرة؛ منها: (التاج) كما ذكرنا، وربيانة، وتازربو، وامتد نشاط الحركة نحو الجنوب، فوصلت إلى مواطن جديدة في السودان الإفريقي، بوساطة الدعاة، وقوافل التجارة، فوصلت دعوة الإسلام إلى بشر جدد، وقبائل وثنية متعطشة إلى دين الفطرة، وهذا التوغل

المحمود، والانطلاق الجميل بدعوة الله، كان ابن السنوسي المؤسس قد خطط له منذ عهده الباكر في الدعوة إلى الله، فقد قال: «... إذ إن الشعوب المجاورة في السودان والصحراء من إفريقية الغربية لا تزال تعبد الأوثان...»[١١٢].

إن انتقال الإمام المهدي إلى الكفرة ينسجم مع خطة الحركة السنوسية التي استهدفت قبائل الصحراء، وإفريقية الوسطى بدعوة

---

[١١٠] المصدر السابق نفسه، ص (٢٢١).

[١١١] المصدر السابق نفسه.

[١١٢] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٢).

الإسلام، ولذلك تحرك زعيم الحركة لاختيار مركز متوسط يعينه على تبليغ رسالته وأداء واجبه، أما قول من قال: إنما قام بذلك خوفاً من الأوروبيين الذين أرادوا القبض عليه فباطل؛ لأنه جاء للسودان الغربي ليقود حركة الجهاد ضد أطماع فرنسة خصوصاً، والأوروبيين عموماً[١١٣]، وأما قول بعض المؤرخين: إنما اندفع نحو الجنوب خوفاً من السلطات العثمانية(٢) فهذا مردود، لأن علاقة الحركة بالدول كانت قوية، بل إن السنوسية أصبحت من الركائز المهمة في فكرة الجامعة الإسلامية.

إن الإمام السنوسي حرص على أن يتوسَّط ميداناً يقود به حركة الإسلام في إفريقية الوسطى، ولذلك اندفع جنوباً، كما أنه حدثت أحداث مهمة جعلته يحرص على القرب منها، من ذلك توغل فرنسة في القارة الإفريقية، ومحاولة بسط نفوذها على الإمارات الإسلامية في إفريقية الغربية(٢). كانت الوسائل الأمنية لدى الحركة السنوسية تقوم بجمع المعلومات عن تحركات جواسيس فرنسة التي تحاول معرفة حقيقة قوة الحركة السنوسية، وكان الحدث الاخر الذي يشكل خطراً على الحركة السنوسية في تشاد؛ قيام سلطنة رابح في السودان الغربي، فقام الإمام السنوسي بحركته الاستراتيجية، فانتقل إلى الكفرة كخطوة أولى، وعمل على توطيد العلاقات بينه وبين واداي، التي كانت علاقتها بالحركة السنوسية قوية منذ عهد ابن السنوسي الذي كان على صلة بسلطانها: «ثم ازدادت الروابط بين المهدي وسلطان واداي في المدة التالية، حتى طلب يوسف (سلطان واداي) أن يوفد المهدي إلى أبشه أحد كبار الشيوخ السنوسيين مندوباً خاصاً في عاصمته، فأرسل إليه سيدي محمد بن عبد الله السني... فوطد نفوذ السنوسية في واداي»[١١٤].

---

[١١٣] انظر: الحركة السنوسية، ص (٢١٨).

[١١٤] انظر: السنوسية دين ودولة.

ولابد من بيان العمل الجليل التي قامت به قبيلة زوية في مساندة الدعوة والوقوف معها ودعم زعيمها، وقد مدح الشاعر أبو مقرب سيف هذه القبيلة:

زاوية أهل الفخر إن جئت حيهم ترى العز في نادي زوية باديا
وأهل الفتى أمضى من السيف عزمه وإن كان للضيفان بالبِشْر باديا
إذا ما دعوا يوماً إلى شن غارة رأيت المنايا الحمر تعلو المذاكيا
فكم من جريح قد أباحوا وأجحفوا بمال غني لا يخافون عاديا
فأرشدهم مرشد من حل بينهم فلا زال مهديّاً ولا زال هاديا[١١٥]

ثانياً: أحداث أثرت في الإمام الثاني للحركة السنوسية

مرت ظروف عصيبة بالإمام السنوسي أثناء إقامته بالكفرة أثرت فيه وفي حركته، فقد اشتد مرضه ولزم الفراش، وعاوده المرض عدة مرات، واشتد به الألم حتى امتنع عن ملاقاة الناس والجلوس في الصلاة.

وقد جاء في رسالة بعث بها لأخيه قوله: «وقد زال تغير الهواء بلا ضرر ولا عناء، والألم الذي معي تهاون بحمد الله، وقد ظهر النقص في الحبة الأولى؛ لأنها الكبيرة، وقلَّ سيلانها، وانجلت الزرقة التي حولها، وكانت قدر دائرة الكف من غير الأصابع... وصرت أقدر على تكلف الجلوس في الصلاة وملاقاة الناس»[١١٦].

وجاء في رسالة أخرى لأخيه بتاريخ (١٣ ربيع الأول ١٣١٣ هـ) قوله: «أحسست بالألم في الجهة الأخرى، وتزايد.. وبعد أن عجزت عن أداء الصلاة قائماً وقاعداً، وصرت أصلي على جنبي راقداً.. وقد تركت الخروج للناس والجمعة، ونرجو الله أن تكون العاقبة خيراً»(٢). ثم يظهر أن صحته تحسنت بعد ذلك، وقد عرفت ذلك من خلال رسائله

[١١٥] انظر: برقة العربية، ص (٥٨٠).
[١١٦] انظر: المهدي السنوسي، ص (٦٨).

التي أرسلها إلى شيخ زاوية الطيلمون محمد علي المحجوب، ومن المصائب التي مرت به وكانت متلاحقة: وفاة أستاذه عمران بن بركة في منتصف سنة (١٣١١ هـ)، وتوفيت والدته في اخر تلك السنة، ثم لم يلبث شقيقه ومساعده الأول محمد الشريف أن توفي في (٢٧ رمضان ١٣١٣ هـ)[١١٧].

ثالثاً: محمد الشريف شقيق الإمام المهدي

كان محمد الشريف عالماً ربانياً، ومستشاراً عبقرياً، وكان مشرفاً على معهد الجغبوب، وقد تميز بغزارة العلم، ودقة الفهم، والقدرة على التدريس، وتتلمذ على كبار علماء الحركة السنوسية، وتفرغ للطلب والتدريس، وساعده على ذلك وجود مكتبة كبيرة احتوت على النشاط الديني، والعلمي، والأدبي، وقد تحدث الطيب الأشهب عنها فقال: «ونظمت بالجغبوب مكتبة كانت من مفاخره، إذ إنها تعد في طليعة المكتبات التي لا يمكن للأفراد الإتيان بمثلها، وكانت تضم قسماً كبيراً من المخطوطات النفيسة، ولم يجد الإمام بلداً إسلامياً إلا واستجلب منه الكتب، فمن مصر والحجاز والشام والآستانة وتونس ومراكش، إلى غير ذلك من البلاد الإسلامية الأخرى».

وقال الحشائشي عن هذه المكتبة: «أما الكتب الموجودة في خزائنها فقد نيفت على الثمانية الاف مجلد، من تفسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه، وغير ذلك من كتب العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية وغير ذلك، ولا يطبع في العالم كتاب باللغة العربية إلا ويبحثون عنه ويظفرون به..»[١١٨].

لقد كانت الجغبوب محلاً لتخريج القادة وشيوخ الزوايا، ولذلك حرص ابن السنوسي وابنه المهدي على أن يوفروا كافة أسباب النشاط العلمي،

[١١٧] انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٢٤).
[١١٨] انظر: رحلة الحشائشي، ص (١٥٢).

وتتلمذ محمد الشريف على الشيوخ والعلماء، ونهل من الكتب الموجودة، في المكتبة المباركة حتى وصل إلى درجة عظيمة من الفقه والعلم.

يقول الأستاذ الأشهب: «سمعت هذه الحكاية الاتية من تلميذه والدي، السيد أحمد بن إدريس، قال: كنا نحضر على السيد الشريف، وكنا ندرس عنه الحديث والتفسير والتصوف ومطولات كتب اللغة، يجلس بكل تواضع، ويضع الكراس الذي بيده فوق منضدة من الخشب توضع أمامه، ويقرر ما نحن بصدده، وعندما يمر بمشكلة فقهية أو تاريخية أو لغوية يسرد لنا رضي الله عنه من ذاكرته جميع وجوهها، وما ورد فيها من أقوال العلماء أو الأئمة المصنفين بأسلوب عذب ساحر خلاب، ولا يترك قولاً ورد فيها إلا ويأتي به، ثم يوضح الأصح من الأقوال والمتفق

عليه، وعندما نقف على أي بيت من الشعر في أي كتاب نقرؤه أو أي موضوع نتناوله يقول لنا: إن هذا البيت من قول فلان المولود سنة كذا، والمتوفى سنة كذا، ويبتدأى في قراءة القصيدة من ذاكرته، إلى أن يقف على البيت الذي كان السبب في إعلامنا بقوة حافظة سيدنا وسلامة ذاكرته»[١١٩].

إن هذا العالم الجليل والحبر العظيم والبحر الزاخر من العلوم كان من أعمدة الحركة العلمية، فبوفاته اهتزت الجغبوب، وتأثر الإمام المهدي بهذا الحدث الجلل؛ يقول أحمد الشريف عن خبر وفاة والده: «وفي يوم النصف من شوال أتانا رسول خبره، فصعب علينا فراقه غاية، وأزعجنا نهاية، ولكن لم نقل إلا ما قاله الصابرون المهتدون: إنا لله وإنا إليه راجعون»[١٢٠].

لقد تأثر الإمام المهدي لوفاة أخيه وصبر واحتسب، وبكاه الإخوان السنوسيون في كافة الأقطار، وأَبّنهُ العلماء والشعراء والخطباء؛ ومن

[١١٩] انظر: السنوسي الكبير، ص (٤٧).

[١٢٠] انظر: أحمد الشريف المخطوط، من (٤٤ إلى ٥٥).

بينهم: أبو سيف مقرب، والسيد السني، وهذه القصائد تدل على مدى النبوغ الأدبي الذي وصل إليه أتباع الحركة السنوسية:

قال الشيخ الشاعر العلامة محمد السني في رثاء محمد الشريف:

هجمت عليّ من الزمان خطوب ... ومصائب منها القلوب تذوب
خَطْب يئن له الجماد وتنثني ... منه متون العزم وهي صلوب
نوب تنوب وحادثات زواعج ... ترمي الورى بسهامها فتصيب
جلت وجل بها المصاب وغادرت ... رحب الفؤاد يئن وهو كئيب
لبس الأسى منه الأساء كما اكتسى ... ثوب السواد لأجلها جغبوب
عهدي بربع الخل ملتحف إليها ... مخضرة أرجاؤه مرغوب
والشمل مجتمع ونشر البين في ... طي وذيل سروره مسحوب
واليوم أصبح مقشعراً نازحاً ... وحشى الطلول لأجلهم مخروب
دارت عليه من الزمان دوائر ... أبدلنهن على السرور وثوب
لا در در البين يوم ترحلوا ... وسرت بهم نُجْبُ المنون تجوب
وحدا بهم حادي النوى والقلب في ... نار الجوى متقلب مرغوب
سقياً لأيام مضت لما انقضت ... إن البكاء لأجلهم مطلوب
كل الرزايا إن توالت أسليت ... إلا مصابك «يا شريف» صعيب
رزءٌ بِهِ ثُكْلُ الفضائل كلها ... ولوقعه وجه الزمان قطوب
تبكيك أبصار لأنك نورها ... وبصائر منكم لها تطبيب
ومعاشر أنتم ربيع قلوبهم ... ومعاهد أنتم لها أشبوب
وفرائض ونوافل ومحافل ... ومشارق ومغارب وجنوب
وبكى عليك الجو يقطر دمعه ... وعلاه من أحزانه تثريب
أسفي وتهيامي وحر لواعجي ... وقريح جفني بالدموع سكوب
صبر لأمر قد قضاه إلهنا ... وعلى الجميع مقدَّرٌ مكتوب
ناداه إكراماً وتشريفاً له ... فغدا يهرول للنِّدا ويجيب
في ليلة القدر التي قد فضلت ... عن ألف شهر خصه الترحيب[١٢١]

---

[١٢١] انظر: برقة العربية، ص (٢٢٥، ٢٢٦).

- وأما السيد أبو سيف مقرب فقد قال قصيدة في رثاء محمد الشريف، قال ذلك الشاعر الفحل إذا أخذت من كل بيت أول حرف يظهر لك هذه الجملة الاتية: سيدي ومولاي السيد محمد الشريف رضي الله عنه[١٢٢]. قال الحشائشي: وهذا من أنواع البديع المسمى بالترصيع[١٢٣]، قال الشاعر رحمه الله:

س سرنا بنعشك خُضَّع الأعناق سيراً دوين العدو والأعناق
ي يا خير محمول لأعلى جنة ولحورها يلقينه بعناق
د داء أصاب المكرمات فغالها واغتال روح مكارم الأخلاق
ي يجري على وفق القضا حتماً فلا تبقى مواضيه على الأرماق
و والدهر يعتام الأخاير والردى يعتاد نهب نفائس الأعلاق
م ما ضرّه لو أن صارم صرفه أبقاك للعافين والطراق
و والعلم والحلم الذي شمخت به افاق جغبوب على الافاق
ل لكنه لا ينتهي عن قصده بتطبب أو رقية من راق
أ أودى الشريف ابن الشريف محمد من للمعالي بعده من راق؟
ي يا جامعاً أصل العلوم وفرعها جمعاً لمن ناواك غير مطاق
أ أنت الإمام لكل من أم الهدى والدين بالإجماع والأصفاق
ل لك كنز معارف وعوارف تحت الصفائح محكم الأطباق
س سرٌّ ثوى في روضة موشية وشي الربا نحب الحيا الغيداق
ي يا ثاوياً مع أصله في لحده هذا قران السعد في الأعماق
د دار حوت أصل المكارم والعلا مع فرعه شبت على الأطواق
م ما تلك جنة بها قد زخرفت ورثت يا مولاي باستحقاق
ح حزت النعيم بها وكنت منعماً والله يمنحك النعيم الباقي
م ما عذر من ينعاك إذ لم يرتشف كأس الردى من دمعه المهراق
د دمع من العين منها مرسل تهمي بذاك قريحة الماق

[١٢٢] المصدر السابق نفسه، ص (٢٢٤).
[١٢٣] انظر: رحلة الحشائشي، ص (١٦١).

أ إن قصرت يوماً فإن قلوبنا — أسرى لفقدك في أشد وثاق
ل لو كان يفدى الميت بادر كلُّنا — يفديك بالاجال والأرزاق
ش شرفت يا جغبوب حقباً بالذي — أعلى منارك بالثناء الباقي
ر روت إليك وجوه امال الورى — عطشاً لورد نواك الدفاق
ي يسعى لأرضك كل جلف مملق — فيثاب بالاداب والأرماق
ف فازت رجال باحتلال رياضه — ورياضه الخلد النعيم الراقي
ر راضَ الأنام بعلمه وبحلمه — فتقدموا في حلبة الأسباق
ض ضارٍ إذا ما ربته في دينه — أو رمت نقض العهد والميثاق
ي يا صفة صفوة يا شبل صبراً على — ريب الزمان وخطبة الفراق
أ إن المنايا غاية ما دونها — من ناصر كلا ولا من واق
لا لا تخطأى الأحيا سهام حتوفها — من فاته هذا فذاك يلاقي[١٢٤]

– إن الحركة السنوسية فجرت طاقات الشعراء، وأضفت على شعراء الحركة معاني في الصدق، والمثل الرفيعة، ومبادأى الدعوة، وكوَّنتْ أدباً رفيعاً خاصاً بها، يستحق البحث والتنقيب، والدراسة والتحليل، وخصوصاً إذا علمنا أن الشعر لم

يكن صفتهم الأولى، وإنما كان أمراً لاحقاً، وشيئاً ثانوياً بالقياس إلى صفتهم الأصيلة، وهي كونهم علماء دعاة، اتجهوا في حياتهم إلى نشر العلم بين ذويهم، وتهذيب النفوس وإحياء الشعور الديني، وإصلاح المجتمع بهذه الوسيلة، ثم كانوا مع هذا يتمتعون بالموهبة الأدبية، على أقدار مختلفة[١٢٥].

إن القصائد السابقة تساعد الباحث على تصور الأجواء التي كانت إثر وفاة محمد الشريف رحمه الله، وبذلك يستطيع أن يصل إلى تأثير خبر الوفاة على الإمام المهدي وإخوانه في الحركة.

---

[١٢٤] انظر: رحلة الحشائشي، ص (١٥٩، ١٦٠).
[١٢٥] انظر: دراسات وصور، ص (٣٢٦).

وبعد أسابيع قليلة من وفاة السيد الشريف أرسل السيد المهدي في طلب العائلة من الجغبوب إلى الكفرة، فسافر محمد عابد وأفراد بيت والده مصحوباً بالسيد أحمد الريفي، وأبي سيف مقرب، وبهذا الانتقال لم يبق من أفراد البيت السنوسي أحد بالجغبوب[١٢٦].

وفي عام (١٣١٤ هـ) جاء جلة أعيان برقة، ورؤساء القبائل لزيارة الإمام المهدي، ليقدموا لسيادته أحرَّ التعازي في وفاة أخيه[١٢٧]، ويتدارسوا اخر تطورات الأوضاع الدولية، والمحلية، والإقليمية.

رابعاً: رحلة الإمام المهدي إلى السودان الغربي، والصدام مع فرنسة ووفاته:

كان الإمام المهدي يرسل البعثات الاستكشافية في الصحراء، ويحفر الابار، ويتفقد الطرق الموصلة إلى وسط السودان الغربي، وكانت تلك الاستعدادات تجري على قدم وساق، في جو من الكتمان الشديد، وبعد أربع سنوات من المكوث في الكفرة شد رحاله إلى زاوية قرو في برقو في السودان الغربي، ليشرف بنفسه على تنظيم المقاومة، واتخاذ الأهبة لمواجهة القوات الفرنسية الزاحفة نحو بحيرة تشاد[١٢٨] وقد غادر المهدي الكفرة في أواخر جمادى الآخرة عام (١٣١٧ هـ) ورافقه أفراد أسرته، وكبار الإخوان، وشيوخ الزوايا، وأعيان القبائل، وكان ذلك في أواخر

جمادى الاخرة عام (١٣٧١ هـ)[١٢٩]، وكان عدد رفقائه من الرجال (١٠٦٦) رجلاً، وهم الإخوان وشيوخ القبائل والحاشية الخاصة والخدم[١٣٠]، واستغرقت المدة بين الكفرة وقرو السودان الغربي، شهرين

---

[١٢٦] انظر: برقة العربية، ص (٢٢٧).

[١٢٧] المصدر السابق نفسه، ص (٢٣١).

[١٢٨] انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٢٥، ٢٢٨).

[١٢٩] المصدر السابق نفسه، ص (٢٣٩).

[١٣٠] انظر: برقة العربية، ص (٢٣٩).

تقريباً[١٣١]، وبمجرد وصول الإمام إلى قرو وحط رحاله هناك أخذ ينشر دعوته الإسلامية الدينية، وأخذت شعوب تلك المناطق تدخل في دعوة الإسلام طوعاً، وتنضوي تحت زعامة الحركة السنوسية مختارة، وكانت فرنسة تراقب تحركات الحركة السنوسية، وتستعد لمعركة فاصلة معها، وخصوصاً بعد أن استطاعت القضاء على مملكة رابح الزبير، وهزمته في معركة لختة، ثم تم قتله في عام (١٩٠٠ م)، وخضعت لهم سلطنته، وباتوا يهددون كانم[١٣٢]، وكان زعيمها قد: «أرسل محمد البراني إلى كانم فبنى زاوية في بير العلالي، وطفق يجمع جيوشاً من قبائل التبو، والطوارق، وأولاد سليمان، والزوية، والمجابرة لمواجهة الزحف الفرنسي»[١٣٣].

تقدم الفرنسيون نحو كانم في حملة مجهزة بالأسلحة والمعدات الحديثة، واستعد السنوسيون لملاقاتهم، فوضعوا حامية كبيرة في بير العلالي، واشتبكت الحملة في معركة حامية الوطيس مع الإخوان السنوسيين، وكان النصر حليف المدافعين برئاسة الشيخ محمد البراني الساعدي، فارتدت الحملة الفرنسية خائبة بعد أن تركت ميدان المعركة زاخراً بأشلاء الموتى، والجرحى، والمعدات، واستشهد عدد غير قليل؛ من بينهم الشيخ عبد الله بن موسى فريطيس، ووصل الخبر إلى الإمام المهدي، فأرسل من عنده نجدة لمعاونة المجاهدين، واستأنف الفرنسيون زحفهم مرة أخرى، وكان عدد شهداء المعركة الثانية مئة شهيد، من بينهم كل من الشيوخ: غيث سيف النصر، أبو بكر قويطين، يونس بدر، السنوسي خير الله وشقيقه عبد الله، وغيرهم، وقد بلغ عدد الأموات من الفرنسيين مئتين وثمانين؛ منهم خمسة وعشرون ضابطاً.

---

[١٣١] المصدر السابق نفسه.

[١٣٢] انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٢٩).

[١٣٣] المصدر السابق نفسه.

وفي اليوم التالي من هذه المعركة زحف الفرنسيون بعدد كبير من الجيش تعززه قوات احتياطية، فاشتبكت مع المجاهدين في معركة حامية الوطيس نتج عنها انسحاب المجاهدين، واحتلال القوات المعادية لمركز (علالي)، وفي هذه الأثناء وصلت نجدة من المجاهدين يقودها محمد عقيلة، واحتكت بالفرنسيين في مركز لهم أقاموه خارج (علالي)، فالتحمت هناك معركة دامية، أسفرت عن احتلال المقر الفرنسي، والاستيلاء على جميع ما حواه، وفرَّ عدد قليل من الفرنسيين إلى (علالي)، ثم قرر القائد السنوسي الزحف على مركز (علالي)، وحاول بعض المجاهدين إقناعه ليكون زحفهم بعد تريُّث، غير أن القائد صمم على تحرير (علالي) من القوات الفرنسية، أو أن يسكن (علالي) غرف الجنة، وتم الهجوم بروح جهادية عالية، واستشهد القائد السنوسي، واضطر المجاهدون تحت وابل الرصاص للانسحاب بعد أن قتلوا من الجيش الفرنسي أضعافاً مضاعفة، وفي هذه الأثناء وصل إلى المجاهدين خبر وفاة الإمام المهدي[١٣٤]، فخارت العزائم، وضعفت الهمم، وكانت وفاة المهدي بعد أن اشتد المرض عليه، وكان ذلك في يوم الأحد (٢٤ صفر ١٣٢٠ هـ، الموافق ٢ يونيو ١٩٠٢ م) في زاوية قرو، واقترح أحمد الريفي نقل جثمان المهدي إلى الكفرة، فتم ذلك ودفن في زاوية التاج[١٣٥].

لقد كان محمد المهدي داعية من الطراز الأول، تجسدت في شخصيته صفات القادة الربانيين، وكان يهتم بأمر المسلمين، في كل صقع من أصقاع العالم، وكان يؤلمه أي خلاف إسلامي، أو أي مشكلة تقع بين الأفراد، أو بين العائلات، أو بين القبائل، فكان يولي هذه الناحية مجهودات كبيرة في فكره وتفكيره، ويتخذ كل

---

[١٣٤] انظر: المهدي السنوسي، ص (٧٣).

[١٣٥] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٧٣).

الوسائل لإزالة سوء التفاهم بعمله وارائه وتدبيره، عاملاً على إحلال الصفاء والوئام محل الشقاق والخصام[١٣٦]، وكان عفيفاً يحترز من المال العام، فعلى سبيل المثال وصل إلى الجغبوب حاكم برقة العثماني الفريق رشيد باشا، وحل بطبيعة الحال ضيفاً مكرماً على الإمام المهدي، فعومل هذا الضيف بالإكرام والاحترام والتقدير، ولم يتناول مع محمد المهدي الطعام إلا مرتين اثنتين، ومرد ذلك إلى أن موارد

الجغبوب التي ينفق منها كانت من الأوقاف الإسلامية، والصدقات والزكاة الشرعية، والهبات التي خصصها المتبرعون بها تنفق على أوجه البر والإحسان، ثم ما احتسب للمشاريع الإصلاحية والإنشاء والتعمير، وللإنفاق على المشاريع، وعلى طلاب العلم، والضيوف وعابري السبيل، والمعسرين، وبطبيعة الحال إن دار الضيافة وهي أحد هذه المشاريع هي التي تقوم بإكرام ضيف الجغبوب الكبير، وكان المهدي السنوسي يتحاشى أن يصل إليه شيء من ذلك، وهكذا لا يمكنه على ما يظهر أن يتناول من الأطعمة التي تعد لرشيد باشا، وإزاء هذه الحالة أقام مأدبتين من ماله الخاص لضيف الجغبوب المحترم، وتناول معه الطعام، لقد كان المهدي السنوسي ينفق من موارد خاصة، مصدرها الزراعة، وتنمية الماشية، بزاويتي القصور ودفنة، ومن هذه الموارد كان مأكله وملبسه[١٣٧].

لقد اتصف الإمام المهدي السنوسي بصفات المؤمن؛ ألا وهي: «قوة في دين، وحزم في لين، وإيمان في يقين، وقصد في غنى، وتحمل في فاقة، وإحسان في قدرة، وصبر في شدة، لا يغلبه الغضب، ولا تجمح به الحمية، ولا تفضحه بطنه، ولا يستخفه حرصه، ولا تقصر به نيته، ينصر المظلوم، ويرحم الضعيف، لا يبخل ولا يبذر، ولا يسرف ولا

---

[١٣٦] انظر: المهدي السنوسي، ص (٨٢).

[١٣٧] انظر: المهدي السنوسي، ص (٧٩).

يقتر، يغفر إذا ظلم، ويعفو عن الجاهل، نفسه منه في عناء، والناس منه في رخاء»[١٣٨].

فرحمة الله على المهدي، لقد اهتز العالم الإسلامي لخبر وفاة المهدي، وكتبت الصحف والمجلات الغربية والشرقية حول وفاة هذا الزعيم الإسلامي، وتولى قيادة الحركة السنوسية بعد وفاة المهدي ابن أخيه أحمد الشريف، فقام بتوجيه رسالة إلى شيوخ الزوايا نعى فيها عمه المهدي، وهذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم: [الملك: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝} [المُلك: ١-٢].

[يس: {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝} [يس: ٣٨]

وبعد: فإنه من عَبْدِ ربّهِ سبحانه: أحمد ابن السيد محمد الشريف ابن السيد محمد

السنوسي الخطابي الإدريسي الحسني، إلى الأجل الأبر الصفي الأنور سيدي الشيخ.... ويكتب اسم شيخ الزاوية المرسل إليه الكتاب سلمه الله امين. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ومرضاته، والموجب لهذا السؤال عن الأحوال لا زالت محفوفة بالتكريم والإجلال، وإن سألتم عنا فإننا ولله الحمد تحت مجاري الأقدار ساكنون، وفي قبضة من يقول للشيء: كن، فيكون، ولنفحات المولى جل وعلا متعرضون، وبما حكم به سبحانه وتعالى راضون، وعن جميع ما لا يرضى الخالق بحوله وقوته معرضون، وبما وعدنا به الله ورسوله موقنون، ولاغتلاس المنون مترقبون، سائلين منه تعالى منح ما بُشِّر به الصابرون، والقائلون عند المصيبة: إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون، اجرنا الله

---

[١٣٨] المصدر السابق نفسه، ص (٨٤، ٨٥).

واجركم في مصيبتنا ومصيبتكم بالأستاذ الذي طالما رشد الخلق، وإلى طريق الحق يهدي، سيدنا محمد المهدي رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة متقلبه ومثواه، ونفعنا بأسراره وأسرار ابائه، وجعلنا من المفلحين الذين هم حزب الله من أوليائه وأصفيائه، فقد نقله من الدنيا إلى الاخرة التي هي خير؛ في منتصف نهار يوم الأحد الثالث والعشرين من صفر الخير من سنة عشرين وثلاثمئة وألف، ضاعف الله له الخيرات وضاعف الضعوف ألوف ضعف، وسقى بشابيب الرحمة تربته، وأسكنه مع الذين أنعم الله عليهم جنته، إنه جواد كريم بر رحيم، ومنا جزيل السلام إلى جميع الإخوان والمحبين، ومن عندنا سلم عليكم صنونا السيد محمد عابد، والسيد محمد إدريس، وكافة الأنجال والإخوان والسلام»[١٣٩].

تاريخ ٧ ربيع الأول ١٣٢٠ هـ

وهكذا انتقل السيد المهدي إلى رحمة الله وهو لم يبلغ الستين من عمره، استطاع خلالها أن يتوسع في ميادين الدعوة، مقتفياً في ذلك منهج والده، ومات وهو في طريقه نحو ساحات الوغى، وألهب مشاعر أتباعه، ودفعهم نحو حب الجهاد، وورث القيادة لجيل اخر استطاع أن يقارع فرنسة، وإيطالية، وإنجلترة بقيادة أحمد الشريف.

وأختم حياة الإمام المهدي بهذه القصيدة الرائعة التي تدل على الطاقات الكامنة

في شعبنا المسلم «الليبي»، وقد جاءت هذه القصيدة تحمل في كل بيت منها صورة واضحة لسيرة الزعيم الثاني للحركة السنوسية، وبينت إصلاحاته العلمية والدينية والعملية والنظامية وهكذا، فالإسلام دين ودولة، وسيف ومصحف. قال الشاعر الكبير رفيق المهدوي:

---

[١٣٩] انظر: مجموعة الشيخ منصور المحجوب، نقلًا عن الحركة السنوسية، ص (٢٣٢).

السيد (المهدي) أعظم مصلح — بعد الأئمة قام بالإصلاح

إصلاحه الدين الصحيح منزه — عن جذبة المتصوف السباح

صان العقائد مِنْ خرافات ومِنْ — بِدَعٍ ومن متناقض الشراح

ما كان إلا بالشريعة عاملاً — بالعلم في نهج التقى وسماح

متقبلاً أخلاق والده الذي — بدأ الجهاد بهمة وكفاح

(ابن السنوسي) الذي اثاره — تغني عن الإطراء والأمداح

كالشمس لا تحتاج برهاناً ولا — يحتاج مبصرها إلى استيضاح

والشمس إن جهل الكفيف ضياءها — عرف الحرارة في الشعاع الضاحي

والمسك يعرف دون رؤيته إذا — سطح الشذا من عَرْفِهِ الفواح

والفرع ينزع للأصول نجابة — إن الوشيج يجود بالأرماح

والنوع يبقى بعد طول تقلب — في حبة فتجيء بالأدواح

ال الرسول وإن تطاول عهدهم — ما زال سر العرق في الأقحاح

كانت طريقته القيام بسنة — نبوية لألاءة الأوضاح

ليست لدروشة المريد وجذبة — بالدف أو بالرقص أو بصياح

كانت معالمه كسيرة جده — إحياء دين وانتشار صلاح

أعمال مجتهد بخالص نية — للخير، منتصر بغير سلاح

لو كان عن شيء لغير الله في — أعماله ما كللت بنجاح

إذ لا يدوم سوى الذي هو نافع — للناس مرتفع عن الأرباح

ومن الكرامة للولي نجاحه — في النصح بالإقناع والإفصاح

والمرء لا يعجبك منه ما سعى — بل ما نوى في السعي من إصلاح

فإذا استوى عمل وحسن عقيدة — كان النجاح حليف كل طماح

إن العقيدة لا يصح يقينها — إلا بفعل ظاهر وصراح

فإذا أحب الله باطن عبده — ظهرت عليه مواهب الفتاح

وإذا صفت لله نية مصلح — مال العباد إليه بالأرواح

هذي صفات السيد «المهدي» ولا — والله ما بالغت في الإيضاح
فله من الخدمات للإسلام ما — يعلو على متناول الشراح
يكفيه نشر الدين في الالاف من — أقصى حدود «الشاد» حتى «الواح»
نصر لدين الله بين مجاهل — صعبت على الرواد والسياح
فازوا من الفتح المبين بعزة — الإسلام بعد عبادة الأشباح
وكفاه نشراً للعلوم بناؤه — لمعاقل مثل الحصون فساح
تلك الزوايا القائمات كأنها — للمدلج الساري ضياء صباح
كانت مناراً للعلوم وملجئاً — للمحتمين ومورد الممتاح
لتلاوة القران في عَرَصَاتها — كدوي ثول النحل في الأجباح
ولدارس التوحيد في أرجائها — هديٌ ينير إنارة المصباح
ولنهضة العمران كان بذاته — يلقي دروس الحرث للفلاح
ويدرب الفرسان معتمداً على — فن بأحدث عدة وسلاح
ويوحِّد الأهداف بين قبائل — كانت فلولَ عداوة وتلاحي
هذي كرامات الإمام السيد — المهدي للإيمان والإصلاح
للدين والدنيا وللأولى ولل — أخرى وللأبدان والأرواح
لا كالكرامات التي يروونها — كعجائب الفقراء غير صحاح
أو كالتصوف عند قوم أظهروا — بلهاً بلبس الصوف والأمساح
فكرامة الإصلاح بالخير الذي — للناس فوق كرامة الصلاح
ماذا أقول ولا أريد زيادة — عن مدح من سبقوا من المداح
سبقوا وما بلغوا سمو شواردي — إلا مثابة ريشة بجناحي
في مدح من فاق الملوك مكانة — بجلال وصف سميدع جحجاح
كانت تهاديه الملوك فيعتلي — متعففاً برزانة ورجاح
ورعاً وزهداً في حطام عاجل — وتحفظاً من جائز ومباح
بلـغ الكمال المستطاع لمنتهى — أفق لقرب الأنبياء متاح

لا أدعي أني أحاول وصفه ... بإطالة الإطناب والإلحاح
لكنني أخلصت مدحي موقناً ... بالحق في جد بغير مزاح
وأشدتُ بالذكر الذي لا يمتري ... في صدقه متبجح أو لاحِ
لا أبتغي مالاً ولا جاهاً ولا ... زلفى تقربني إلى مناح
حسبي قد استغنيت بالإيمان عن ... كل العباد بفالق الإصباح
وأردت عند الله في ذاك الجزا ... وبحسن ظني في الرسول نجاحي
وبالانتساب إلى النبي واله ... أرجو مفازي في غد بفلاح
ومن التفاؤل أن نسبة «مهدوي» ... جاءت من «المهدي» عن الشراح
إني أقرُّ بأنني أسرفت في ... دنيا المعاصي راكباً لجماحي
ما لي أمام الله غير سريرة ... بيضاء يوم المحشر الفضاح
ولقوله لا تقنطوا من رحمتي ... ألقى الإله بخاطرٍ مرتاح
مالي سوى صدق اليقين مؤملاً ... حسن الختام على هدى وصلاح[١٤٠]

[١٤٠] انظر: المهدي السنوسي، ص (١١، ١٢، ١٣).

الخُلاصة

• ولد محمد المهدي السنوسي في الجبل الأخضر في ليبية في شهر ذي القعدة عام (١٢٦٠ هـ)، الموافق نوفمبر (١٨٤٤ م).

• كانت فرحة الإخوان، وابن السنوسي بمولد محمد المهدي عظيمة.

• لما ولد الابن الثاني لمحمد بن علي السنوسي عام (١٢٦٢ هـ/١٨٤٦ م)، كتب عمران بن بركة لشيخه يهنئه بالمولود الثاني، ويسأله عن اسم الوليد الثاني، رد له الجواب بتسمية الشريف قائلاً له: «إننا لا نحيد بأسماء أبنائنا عن أسماء النبي (ص)، وإنما يختلفون في الألقاب والكنى، فكما سميت الأول محمداً المهدي ليحوز أنواع الهداية، فسمِّ هذا محمداً الشريف ليحوز أنواع الشرف».

• أسند ابن السنوسي تربية أولاده للإخوان، وكان المسؤول الأول الشيخ العلامة عمران بن بركة.

• وبعد أن حفظ محمد المهدي القران الكريم طلبه والده للمجيء للحجاز، وصحبه العلامة محمد بن إبراهيم الغماري، وهناك عهد به والده إلى نخبة من العلماء لتربيته وتلقينه العلوم تحت إشرافه المباشر.

• رجع محمد المهدي إلى الجغبوب بصحبة العلامة عبد الرحيم المحبوب، وواصل محمد المهدي تعليمه العالي في معهد الجغبوب، وأشرف على تعليمه وتربيته والده ابن السنوسي وكبار الإخوان.

• تميَّز محمد المهدي منذ طفولته بالذكاء، وحسن الخلق، والصفات الرفيعة، والأخلاق الحميدة.

• تزوج محمد المهدي في حياة والده وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره بفاطمة ابنة عمران بن بركة، وذلك عام (١٢٧٥ هـ/١٨٥٨ م)، وقد أنجبت للمهدي عدة أولاد، وتوفيت في حياته سنة (١٨٩١م).

• بعد وفاة ابن السنوسي خفَّ كبار العلماء والشيوخ في الحركة السنوسية إلى مبايعة محمد المهدي.

• كوَّن محمد المهدي السنوسي مجلساً أعلى من كبار الإخوان، يتكون من العلامة عمران بن بركة، وأحمد الريفي، وعلي عبد المولى، وفالح الطاهري، وعبد الرحيم المحبوب، ومحمد المدني التلمساني، ومحمد بن الحسن البسكري.

• كان المجلس الأعلى للحركة يمثل قمة الهرم الذي قاعدته الزوايا، وكان يضم كبار رؤساء الزوايا في برقة، وطرابلس، ومصر، والحجاز، والسودان، وشمال إفريقية، وكان يجتمع سنوياً في الجغبوب للنظر في أهم أمور الحركة.

• من الملاحظ أن مبدأ التفرغ كان موجوداً في الحركة لقناعة الحركة السنوسية أن الأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة، وجهود ضخمة وهمم عالية، ولذلك سلكت الحركة السنوسية مسلك تفريغ بعض القيادات، ووفرت المال اللازم لهذا الهدف، ووفرت كل ما يحتاجه الأفراد المتفرغون حتى يستطيع المتفرغون أن يبذلوا ما في وسعهم من أجل الدعوة ونشرها بين الناس.

• اهتم محمد المهدي بتطوير العاصمة السنوسية، فحفلت الجغبوب بالنشاط العلمي، والزراعي، وانتظم سير العمل في معهد الجغبوب، ووزع تلاميذ المدارس القرانية على أقسام، ورتبت بدقة أمور الدراسة، وكل ما يتعلق بالطلاب.

• كانت الزوايا تقوم بدورها في جمع المعلومات وما يتعلق بالقضايا

الأمنية وترسلها إلى الجغبوب، وكان نظام البريد ينقسم إلى أربعة أقسام، نقطة ارتكازها الجغبوب.

• نمت الحركة السنوسية في عهد محمد المهدي نمواً كبيراً، وتضاعف عدد الزوايا أكثر من أربعة أضعاف، وانتشرت هذه الزوايا في الصحراء الكبرى، وعلى طريق مصر، وتونس، وفي واداي.

• كان من أسباب هذا النمو السريع: طبيعة الحركة، ونظمها المتطورة بالنسبة لعصرها، وفهمها لطبيعة المجتمعات القبلية، وطول المدة التي قضاها الزعيم الثاني

في قيادة الحركة، إذ تجاوزت أربعين سنة، فتمكن أثناءها من تركيز العلم الذي بدأه والده.

• تمكَّن الإمام المهدي أن يبني علاقات قوية مع الإمارات الإسلامية في واداي، وبرقو، وكانم وغيرها، واختط خطة حكيمة كانت مبنية على الحيطة والحذر من النفوذ الصليبي الأوروبي في إفريقية، ثم عدم التردد في مكافحة هذه الدول إذا جد الجد، كما فعل مع فرنسة.

• كان محمد المهدي يحرص دائماً على إزالة البغضاء والشحناء من نفوس القبائل المتعادية، ويدعوها إلى أخوة الإسلام، وشغلها بالطاعة، ودفعها نحو المعالي، والأخلاق الرفيعة، واستطاع أن ينظم من القبائل كتائب للجهاد ساهمت في قتال فرنسة، وبعد وفاته قاتلت إيطالية.

• كرَّس المهدي جهوده للبناء الداخلي في الحركة، واختطَّ طريقاً سلمياً تجنب الاحتكاك فيه جهد المستطاع بالقوى المحيطة به، واستطاع أن يتخذ مواقف تدل على بعد نظره وثاقب فكره من الثورات التي حدثت في السودان، ومصر، وكذلك الدول الأوروبية.

• نشطت الحركة السنوسية في تعبئة أتباعها على الاستعداد للجهاد، ونظمت صفوفها، ورأى السلطان عبد الحميد الثاني في الحركة السنوسية قوة منظمة ومعدة إعداداً مادياً ومعنوياً جيداً يمكن استغلالها في المواجهة العسكرية المتوقعة مع أعداء الدولة العثمانية في شمال إفريقية.

• حققت الحركة السنوسية انتشاراً كبيراً في أواسط إفريقية، وتوطَّد سلطانها في قلب الصحراء الكبرى، وكانت عقبة في طريق الرسالات التنصيرية التي وجدت في الحركة السنوسية خصوماً عنيدين؛ عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة.

• تولت فرنسة مهمة الهجوم الإعلامي على الحركة السنوسية، وأرسلت عدداً من الرحالة؛ منهم دوفرييه، ثم وقفت من الحركة موقفاً عدائياً، وشنت عليها حرباً دعائية بوساطة رحالتها الذين كتبوا عن السنوسية، وقصدت بذلك تشويه الحركة، كما تجلى موقفها العدائي في ضغطها على الباب العالي للتضييق على السنوسية، ثم تبلور هذا الموقف في حربها الظالمة لمواقع الحركة السنوسية في تشاد.

• إن نظرة المهدي للثورات غير المدروسة دراسة دقيقة تتيح للأجانب التدخل، ويرى أن طريق البناء، والتربية، والإعداد العقدي، والوسائل السلمية هي الطريقة المثلى نحو النهوض الشامل للأمة.

• إن علماء الحركة السنوسية وعلى رأسهم المهدي السنوسي لم يؤمنوا بمهدية محمد أحمد، وكذلك رفضوا القول بمهدية المهدي السنوسي، واعتبره محمد المهدي السنوسي نوعاً من التخريف، ويرجع ذلك إلى علمهم المتين، واستيعابهم لكتاب الله، والسنة المطهرة التي بينت حقيقة المهدي المنتظر، والتزموا بعقيدة أهل السنة والجماعة التي وضحت هذا المعتقد.

• إن التهمة الموجهة للحركة السنوسية بأن أتباعها يعتقدون في الإمام المهدي السنوسي أنه هو المهدي المنتظر تهمة باطلة، رفضها الإمام محمد المهدي، وعارضها وأبى الموافقة على القول بها، وعندما سئل الملك إدريس رحمه الله عن رأي أبيه في قول بعض أتباع الطريقة بمهدويته أجاب: «كان كلما سمع هذا القول نفاه بشدة، وأبداً لم يعتقد به.

• إن الليبيين عموماً ارتبطوا بفكرة الجامعة الإسلامية، وسياسة الدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد الثاني الذي تبنَّى الدعوة إليها، وأكدوا

في كل مناسبة ارتباطهم بهذه الدعوة، وخاصة في أزمات الدولة، ففي حرب الدولة مع اليونان سارع أهل طرابلس بتشكيل اللجان لجمع التبرعات، وقد كتب على الاستمارات المعدة للجمع عبارة (إعانة جهادية)، وبلغ مجموع التبرعات قرابة (مئة ألف فرنك).

• كانت خطة التوسع عند الحركة السنوسية تستدعي من زعيمها محمد المهدي الانتقال نحو الجنوب وفق خطوات مرسومة، ومراحل معلومة لدى قادة الحركة، وتقرر لدى محمد المهدي الانتقال من الجغبوب إلى الكفرة، وشرع في تنفيذ القرار الاستراتيجي بسرعة البرق، فجمعت الإبل الكافية للنقل، وخبراء الطريق، والأمتعة الضرورية.

• كان قرار انتقال الإمام المهدي إلى الكفرة مفاجأة لأهالي ليبية، واهتزت البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وترك أثراً حزيناً أليماً في النفوس.

• تولى المهدي السنوسي تصريف أمور الحركة من الكفرة، فعجت بالحركة ،

وأصبح أتباع الحركة يقدمون إليها من كل حدب وصوب، حتى ضاقت بهم مساكنها.

• تأثر محمد المهدي بوفاة أخيه محمد الشريف الذي كان عالماً ربانياً، ومستشاراً عبقرياً، وكان مشرفاً على معهد الجغبوب، وقد تميز بغزارة العلم ودقة الفهم، والقدرة على التدريس.

• استطاعت الحركة السنوسية أن تفجر طاقات الشعراء، وأضفت عليهم معاني في الصدق، والمثل الرفيعة، ومبادأى الدعوة، وكونت أدباً رفيعاً خاصاً بها، يستحق البحث والتنقيب، والدراسة والتحليل.

• بعد أربع سنوات من المكوث في الكفرة شد المهدي رحاله إلى زاوية قرو في برقو في السودان الغربي، ليشرف بنفسه على تنظيم المقاومة، واتخاذ الأهبة لمواجهة القوات الفرنسية الزاحفة نحو بحيرة تشاد.

• تقدم الفرنسيون نحو كانم في حملة مجهزة بالأسلحة والمعدات الحديثة، واستعد السنوسيون لملاقاتهم، فوضعوا حامية كبيرة في بير

العلالي، واشتبكت الحملة في معركة حامية الوطيس مع الإخوان السنوسيين، وكان النصر حليف المدافعين برئاسة الشيخ محمد البراني.

• استمرت المعارك بين قوات المجاهدين والجيش الفرنسي، واضطر المجاهدون تحت وابل الرصاص للانسحاب بعد أن قتلوا من الجيش الفرنسي أضعافاً مضاعفة، وفي هذه الأثناء وصل إلى المجاهدين خبر وفاة الإمام المهدي، فخارت العزائم، وضعفت الهمم، وكانت وفاة المهدي بعد أن اشتد المرض عليه، وكان ذلك في يوم الأحد (٢٤ صفر ١٣٢٠ هـ) الموافق (٢ يونيو ١٩٠٢ م) في زاوية قرو، ثم نقل ودفن في زاوية التاج.

• كان محمد المهدي داعية من الطراز الأول، تجسدت في شخصيته صفات القادة الربانيين، وكان يهتم بأمر المسلمين، في كل صقع من أصقاع العالم، وكان يؤلمه أي خلاف إسلامي أو أي مشكلة تقع بين الأفراد، أو بين القبائل، فكان يولي هذه الناحية مجهودات كبيرة في فكره وتفكيره، ويتخذ كل الوسائل لإزالة سوء التفاهم بعلمه وارائه وتدبيره، عاملاً على إحلال الصفاء والوئام محل الشقاق والخصام.

• ترك لنا الشاعر أحمد رفيق المهدوي قصيدة رائعة تحمل في كل بيت منها صورة واضحة لسيرة الزعيم الثاني للحركة السنوسية، وبينت إصلاحاته العلمية، والدينية، والعملية، والنظامية.

• تولى قيادة الحركة السنوسية بعد وفاة المهدي ابن أخيه أحمد الشريف الذي قاد كتائب الجهاد ضد فرنسة في تشاد، وضد إيطالية في ليبية، وضد بريطانية في مصر.

• يتفق معظم المؤرخين بأن أحمد الشريف ولد بواحة الجغبوب ليلة الأربعاء بتاريخ (٢٧ شوال سنة ١٢٩٠ هـ) الموافق لسنة (١٨٧٣ م)، انكبَّ منذ طفولته على القراءة والتحصيل، وحفظ القران الكريم في سن مبكرة.

• تربى أحمد الشريف في حجر والده العلامة محمد الشريف، وحينما ترعرع وبلغ السادسة من عمره دخل تحت كنف عمه المهدي السنوسي، فاهتم بتربيته وتهذيبه، وأشرف عمه على تعليمه وتحفيظه للقران الكريم.

• شارك أحمد الشريف مع عمه في معارك الحركة ضد فرنسة في تشاد، ولما شعر محمد المهدي بدنو أجله، عهد إلى ابن أخيه بالقيادة لما توسم فيه من القدرة على الاضطلاع بأعباء الحركة.

• استمر أحمد الشريف على نهج زعماء الحركة السنوسية، فواصل الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، ونشر الدعوة الإسلامية بكل حكمة في إفريقية، واتخذ من الكفرة عاصمة للحركة السنوسية، وأناب عنه محمد السني لإدارة أمور الجهاد.

• كان الصراع بين فرنسة والحركة السنوسية في إفريقية على أشده، وتميز السنوسيون في جهادهم بقدرتهم على الكر والفر، وكانت قبائل الصحراء والقبائل الليبية تتمحور حول قيادة الحركة السنوسية.

• كان من أشهر قادة الحركة السنوسية في جهادها ضد فرنسة، المجاهد محمد كاوصن، عبد الله السني، عبد الله فضيل، الطوير الزوي، البراني الساعدي، غيث عبد الجليل سيف النصر، محمد بو عقيلة الزوي، صالح بو كريم الزوي، كيلاني الأطيوش المغربي، عابدين الكنتي.

• استمرت إيطالية أكثر من ثلاثين سنة وهي تجمع المعلومات وترسل الجواسيس، وتخطط لغزو ليبية، وتتوغل بالمؤسسات التجارية، والمدارس العلمية لغزو بلادنا.

• كانت إيطالية عازمة على احتلال ليبية، وبذلت في سبيل ذلك جهداً كبيراً على مستوى الولاية نفسها، بتعزيز مظاهر نفوذها أو على المستوى الدولي بالحصول على موافقة أغلب الدول الأوروبية على ذلك، إلا أن شدة تمسك الدولة العثمانية بالولاية في زمن السلطان عبد الحميد الثاني، وقوة نفوذ الحركة السنوسية في داخل ليبية، وحسن التنسيق القائم بين الطرفين، كل ذلك أدى إلى تأجيل إيطالية تنفيذ مشروعها الاستعماري العدواني الغاشم عام (١٩١١ م).

• في عام (١٩١١ م) أعلنت إيطالية الحرب على ليبية، وشرعت بوارجها في قصف المدن الليبية، واستعد أهالي البلاد للجهاد في سبيل الله.

• بعد وصول خبر احتلال إيطالية لطرابلس، وقصفها لبقية المدن الليبية بأساطيلها، قام أحمد الشريف بجمع السادة، والشيوخ، والعلماء، والقادة، وعرض عليهم الأمر واستشارهم، وخرج الأمر بتوجيه الشيوخ وعلماء الحركة بقيادة المجاهدين في كافة ساحات الوغى، وقال أحمد الشريف: «والله نحاربهم ولو وحدي بعصاتي هذه».

• تدفق أتباع الحركة السنوسية كالسيل الجارف على ميدان القتال في طرابلس، وفي منتصف يناير (١٩١٢ م) قال السيد أحمد الشريف كلمته لأهل ليبية، وأصدر نداءه المشهور يحث فيه أهالي البلاد على الجهاد ضد العدو المعتدي، ويعلن فيه نبأ اعتزامه النزول بنفسه إلى ميدان القتال.

• اعترف السلطان العثماني بجهود أحمد الشريف، وأهداه في مارس (١٩١٢ م) سيفاً ونيشاناً مرصعاً بالجواهر مكافأة وتقديراً لجهوده في الجهاد.

• خلد التاريخ المعاصر أسماء المعارك التي قام بها الأجداد ضد إيطالية في المنطقة الغربية من ليبية؛ من أهمها: معركة طرابلس، معارك الخمس، معركة الهاني، معركة سيدي مصري، معركة قرقارش، معركة أبي كماش، معركة لبدة، معركة تاجوراء.

• أرسل أحمد الشريف أخاه صفي الدين ليتولى قيادة الجهات الغربية من برقة ،

وكان لإرساله فرحة عظيمة لدى القبائل المنضوية تحت لواء الحركة السنوسية، وقاد صفي الدين معركة عظيمة ضد إيطالية بموقع (أبي هادي)، واستمرت المعركة بشدة وعنف عدة ساعات انجلت عن خسارة إيطالية.

• كانت الانتصارات التي حققتها الحركة السنوسية محل الإعجاب والتقدير، من أبناء ليبية المخلصين، ولذلك اتصل كثير من القادة والشيوخ بصفي الدين، وكان رمضان السويحلي المجاهد الكبير على رأس أولئك الأبطال المغاوير.

• حقق المجاهدون نصراً عظيماً في معركة القرضابية، وبدأت قواتهم في تطهير البلاد من المعتدين، وتركت الحاميات الإيطالية حصونها بسهولة، وهامت على وجهها عبر التلال والسهول المحرقة الجافة، وحررت مزدة، والقصبات، وسرعان ما وصل المجاهدون إلى ابن غشير على بعد ١٥ ميلاً من طرابلس.

• حقق المجاهدون انتصاراً عظيماً على إيطالية، ولولا الشقاق والخلاف والنزاع الذي وقع بين رمضان السويحلي وصفي الدين السنوسي لأصبح الجهاد أمراً اخر.

• تولى محمد عابد السنوسي جهاد الجنوب في فزان والجفرة والنواحي الغربية من فزان، واتخذ من زاوية (واو) مركزاً للقيادة.

• قاد سالم بن عبد النبي الزنتاني حرب عصابات ناجحة في ولاية فزان، وأثخن في أعداء الله، وهاجم القاهرة؛ وهي ربوة عالية في (سبها) يوجد بها حصن وسياج من المدافع والأسلاك الشائكة، وأصبحت تلك القلعة منيعة جداً، واستطاع سالم عبد النبي فتحها بقواته المجاهدة عام (١٩١٤ م)، ولقد أبلى أهل الجنوب بلاءً حسناً في جهادهم ضد إيطالية.

• دافع أهالي بنغازي عن مدينتهم دفاعاً مجيداً، وأظهروا من البطولة والشجاعة النادرة، ما جعلهم محل التقدير من كل المسلمين، وسجلوا صفحات مجيدة خالدة في سجل التاريخ.

• توافدت النجدات العسكرية إلى مدينة بنغازي بقيادة شيوخ الحركة السنوسية، فوصلت كتيبة العرفا، وعددها ثلاثمئة مسلح، يقودها الشيخ عمران السكوري، وتلتها بقية النجدات التي جاء بها زعماء القبائل وشيوخ الزوايا من كل حدب وصوب.

• صممت الدولة العثمانية على المقاومة حفظاً لماء الوجه، أمام الرأي العام الإسلامي، فأرسلت نخبة من ضباطها وقوادها المشهورين، لتقوية روح المقاومة والدفاع، وتدريب المجاهدين وتعليمهم كيفية استعمال الأسلحة الحديثة والمعدات.

• كان من أبرز قادة الأتراك الذين أرسلتهم الحكومة العثمانية كل من: الرائد أنور بك، ومصطفى كمال، وفتحي أوفيار، وخليل بك عم أنور بك، وفؤاد بولجا قاش باشي، وسليمان العسكري، وعزيز علي المصري، وأدهم باشا الحلبي.

• تفاعل العالم الإسلامي مع البطولات العظيمة التي حققها المجاهدون في ليبية، وقامت الشعوب الإسلامية بواجبها نحو إخوانهم في الدين.

• أدركت إيطالية عجزها عن إتمام احتلال بقية ليبية، ولذلك قررت أن تهاجم الدولة العثمانية في مراكزها الضعيفة لترغمها على الدخول في المفاوضات للوصول إلى تخلي تركية عن دعمها لليبية، ونجحت في ذلك.

• كان موقف أحمد الشريف واضحاً قبل توقيع الصلح بين إيطالية وتركية، فقد بعث إلى أنور باشا في درنة يذكر فيه ما وصله من أن الدولة تعتزم إعطاء ليبية إلى إيطالية، فقد جاء في رسالته: «نحن والصلح على طرفي نقيض، ولا نقبل صلحاً بوجه من الوجوه» إذا كان ثمن الصلح تسليم البلاد إلى العدو، وزيادةً حذره مما سوف يحدثه قبول الصلح في نفوس المسلمين في جميع الأقطار من نفور شديد من الدولة العثمانية.

• قامت الدولة العثمانية بتنفيذ معاهدة أوشي، فأصدرت أوامرها لضباطها وجنودها في ليبية للانسحاب.